ما رواه العجوز حَكْمان
عن الفتى الجميل جوهر

الكتاب: ما رواه العجوز حَكْمان عن الفتى الجميل جوهر
المؤلف : جودت جالي
الصنف: قصص
الطبعة الأولى ٢٠١٨ – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع basimalyasiri١٠٠@gmail.com
الإدارة: الدكتور باسم الياسري - قطر: الدوحة ٠٠٩٧٤-٥٥٨٩٨١٨٦ - العراق – بغداد ٠٠٩٦٤٧٧٣٨٠١٠٧٠٢ - تركيا - ٠٠٩٠٥٣٧٢٤٣٣٢٩٩ - الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: ٤٢٩٣
• تصميم الغلاف: دار صفاف للنشر – اللوحة للفنان ستار كاووش

| رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٦٨ لسنة ٢٠١٨ |
| تسلسل الكتاب في الدار: ٢٨٢ |

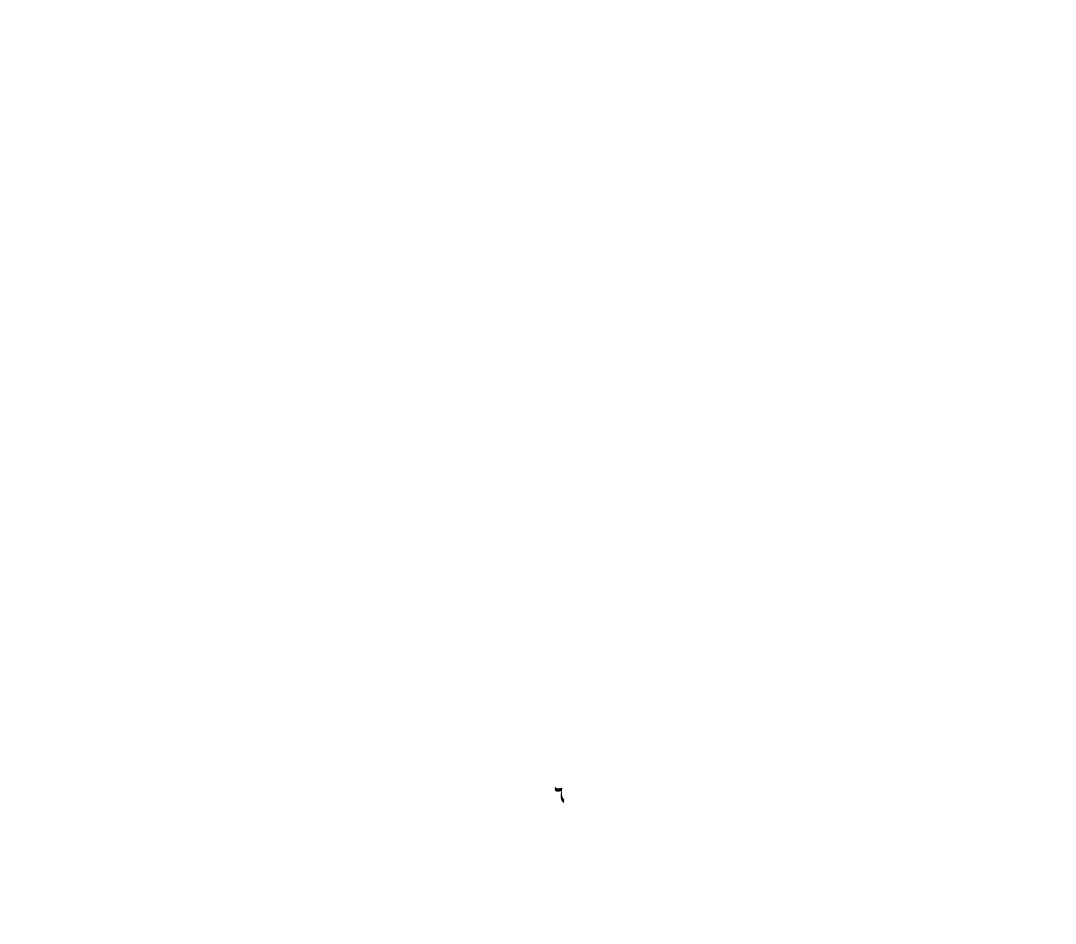
جودت جالي

ما رواه العجوز حكَمْان
عن الفتى الجميل جوهر

قصص



القصص التي تضمها هذه المجموعة والمجموعة السابقة (فك الحزن) من نسج خيال كاتبها والأسماء الواردة فيها هي لضرورات فنية وأي تشابه، كلي أو جزئي، بين حياة وأسماء أشخاصها وحياة وأسماء أشخاص عاشوا أو يعيشون في الواقع، وأي تشابه، كلي أو جزئي، بين أحداثها وأحداث جرت أو تجري في الواقع، هو مجرد صدفة.



المحتويات

ما رواه العجوز حَكْمان عن الفتى الجميل جوهر

"كل الأحزان تهون إذا صغتها في قصة أو رويت عنها قصة"

أسحق دينيس

*

أذكر يوما كنا واقفين، عند بداية الشارع المؤدي الى حينا، مع جمع من طلاب مدرستنا الثانوية بانتظار الحافلة التي تقلنا الى داخل الحي. حانت مني التفاتة الى جوهر.. تأملت وجهه الأبيض الناعم الدائري المشرب بحمرة خفيفة عند الخدين والذي يعلوه شعر سرح فاحم السواد ينزل من الخلف على رقبته، وعينيه الواسعتين العسليتين، ورموشه الطويله، وحاجبيه المقرونين، وشفتي فمه الصغير الممتلئتين اللتين تفتران عن ابتسامة خجول غالبا ما تشع من ملامح وجهه كلها حتى وهو مطبق فمه. هذا هو (جوهر)، إسم مناسب لجمال غير عادي يكاد يكون أنثويا.

الغريب في الأمر أنه ليس في عائلته فرد واحد يمكن عده جميلا، فأمه سمراء ذات ملامح عادية، ولكنها لطيفة محببة، ووالده شديد السمرة، وأخته الأصغر منه، وإن كانت أقرب اليه بلون البشرة، فهي بدينة

وتشبه الفليبينيات. كان يمكن أن نجد لهذا اللغز كشفا عندما رأينا ذات صباح إمرأة تنزل من سيارة شيفروليه خصوصي أمام منزلهم ودفعت الباب الموارب ودخلت دون أن تقرعه فيما نزل السائق، وهو شاب أسمر ممتلئ سبق لي أن رأيته يزورهم، ليفتح صندوق السيارة ويخرج منه حقيبتين كبيرتين ويدخلهما الى البيت ويبقى حوالي ربع ساعة ثم ينصرف بالسيارة.

كنت في تلك اللحظة واقفا مع أم بدرية، وهي أرملة عريف قتل في حرب الشمال، لديها دكان هو في الأصل مطبخ البيت فتحت في جداره نافذة تطل على الشارع، وجئت أشتري منها علبة سجائر (بغداد) لوالدي. ألقت صندوقا صغيرا فارغا من الورق المقوى في برميل للنفايات ووقفت مثلي تنظر الى المرأة التي ترتدي ثوبا أشبه بالجبة المعروفة اليوم وتضع شالا أبيض تركت طرفيه ينسدلان على صدرها بحيث أمكننا أن نلاحظ جيدا ملامحها التي تشي بأنها كانت يوما على قدر كبير من الجمال، ويمكن، إذا حكمنا من خلال الشكل، أن تكون أقرب الى جوهر من جميع أفراد عائلته. قبل أن تدخل التفتت الينا وهي تسير وفترت شفتاها عن تحية لم نسمعها ولكننا عرفناها من إبتسامتها لنا فرددنا التحية بدورنا بصوت خافت مرتبك.

كما هو متوقع إنتشر خبر زيارة السيدة بين الجارات وتحركن يحدوهن فضول النساء لمعرفة كنه هذه الصلة التي تجمع بين هذه العجوز الجميلة وهذه العائلة. لكنهن لم يفلحن، برغم كل محاولاتهن في أن يعرفن من رتيبة أم جوهر شيئا يريح قلوبهن من لظى الفضول سوى أن المرأة قريبة لهم من بعيد و لم تزرهم منذ أن نزلوا في هذا المجمع.

لم تكن أصول عوائلنا من بين إهتماماتنا ونحن في تلك السن، كما أن جوهر نفسه لم يكن ميالا الى جعل أصله موضوعا لحديث، ولذلك لم أحاول أبدا أن أعرف شيئا، لم أسأله، مع أني أقرب أصدقائه اليه وزميله في المدرسة، في صف واحد، على رَحْلة واحدة، في كل الصفوف منذ الأول المتوسط، وهو يحرص أن يكون معي، وكنت أشعر بما يدور في نفسه، أشعر بأنه لا يرغب في أن يشارك طالبا آخر الجلوس على رَحْلة أخرى، فأحجز في بداية كل سنة مكانه معي أو هو يحجز مكانا لي. حتى (إستاد غازي) مدرس الفيزياء كان يعرف علاقتنا الوثيقة وصادف مرة في أول أيام السنة الدراسية أن دخل هو وجوهر سوية والصف لا يزال تسوده الفوضى والطلبة يتجولون بين صفوف الرَحلات لم يستقر الكثير منهم في مكان بعد فوقع بصره علي وكشر وهو يشير نحوي:

-ذاك صاحبك حاجز لك مكانك!

كان (إستاد غازي) متبسطا معنا، نحن الطلبة، الى حد الممازحة، والعبارات الخشنة أحيانا. يأتي في أيام كثيرة دائخا متعكرا من قضاء النهار السابق في الرهان على الخيول وشطرا من الليل في لعب الدمبلة. بعد أن أشار لجوهر نحوي وقف ينظر الى الطلبة الذين يتبادلون الحديث غير عابئين به وتوقعت أن ينهد بسباب مرتب بصوته الهادئ المستمتع وكأنه يلقي درسا، ولم يتأخر كثيرا...

-لكّم طايحين الحظ، جوعانين سوالف على الصبح؟

إنتبهت الى أنه يمسك الطباشير ويديره بين سبابته وإبهامه بانتظار أن يستقر كل طالب في مكانه في صف جديد لسنة جديدة، ووقع بصري على حزامه الهادل تحت كرشه فيما إنفتح القميص فتحته الدائمة عند السرة التي غالبا ما ترتفع عنها الفانيلة فتطالعنا بثقبها المحاط ببعض الشعيرات التي تتأرجح فوقها ربطة عنقه بالغة الطول . كان الطلاب يحبونه ويتقبلون سبابه المقذع عن طيب خاطر، ومجرد رؤيته يسير في الممر قادما الى الصف بخطواته الثقيلة وجسمه المتهدل ونظرته المستخفة يثير مرحهم وهو يرفع نظره الى سقف الممر و يهز رأسه مع إيقاع مشيته يمينا ويسارا .

*

هب علينا الهواء الثقيل من جهة مستنقع بعيد محملا برائحة القصب المتفسخ فيما لاحت لأنظارنا الحافلة التي تأتي عادة في هذا الوقت تتهادى بعدد من الطالبات الأنيقات اللواتي يدرسن في المدرسة الثانوية الأهلية ويكد أهاليهن، من سكان حينا الفقير، لتوفير المال اللازم لدراستهن فيها، وإذا تأخر موعد إنطلاق الحافلة من الباب الشرقي الى أن تحل نهاية دوام الدوائر الرسمية، وهو ما يحصل كثيرا كما حصل في ذلك اليوم، تكون قد أقلت أيضا الموظفات العائدات من أماكن عملهن وبينهن العديد من جميلاتنا.

إرتقى جوهر درجات باب الحافلة أمامي وأنا خلفه. ألقيت نظرتي الشاملة المعتادة التي أنعش تطلعها هذه المرة صف من الطالبات المحتشدات في ممر الحافلة. إتجهت الأنظار الأنثوية نحونا، نحو جوهر تحديدا، جوهر المطرق وهو يصعد الدرجات، والأنظار الكحيلة تصعد معه، وتستقر عليه عند الباب حين تلكأ محاولا بشرود، وهو مطرق أيضا أن يفسح له طريقا بين أجساد الصبايا النابضة بتغريد مرحب مكتوم.

كان جوهر، فضلا عن وسامته، ذكيا وشجاعا، ولكن نقطة ضعفه هي شعوره أنه أجمل مما يجب، أو فلنقل شعوره بأن الآخرين يثير شكله

اهتمامهم أكثر مما يجب، وقد زاد إهتمام الآخرين به ونظراتهم المنبهرة، خصوصا إذا توجهت اليه عن قرب، إحساسه بهذه الوسامة إحساسا قاسيا، أو مربكا في أقل تقدير، وكنت أحيانا أفكر "هل هو مرتاح لكونه جميلا؟" .

رفع يده ليجعلها أمامه حين يدلف بينهن ولكنه توقف فالواقع أنه لم يكن يوجد محل فارغ للوقوف داخل الباص المليء بالطالبات والموظفات والموظفين، وبقينا حيث وقف الجابي الى جوار السائق وهو يكاد يعتلي الدشبول بعجيزته الضخمة. قطع البطاقات وأخذ الأجرة وهو ينظر الينا نظرة هي مزيج من الإشمئزاز والعجب لهؤلاء الشبان الذين يدفعون عشرة فلوس ولا يكلفون أنفسهم المشي مسافة قصيرة الى بيوتهم، وكل ما فعلوه أنهم سدوا طريق الصعود والنزول.

المرأة الوحيدة، من بين كل النساء في الحافلة، التي لم تخفض بصرها عن جوهر طوال الطريق هي (حبيبة) زوجة موظف البدالة (ساجي) والتي كانت يومها عائدة من زيارة لأقارب أو من سوق. إمرأة جميلة سمراء سمرة تضيف الى جمالها جمالا، طويلة على شيء من الضخامة، حتى الطفل الصغير الذي تضعه في حضنها ذو جسم مفعم بالعافية وأضخم مما يكون الأطفال في سنه عادة، ورأسه الكبير يعلوه شعر بني.

لا يمكنني أن أصف نظرتها الى جوهر... التجلي الذي إنكشف لي في تلك اللحظات جعلني على يقين من أن لحبيبة علاقة بجوهر. هذه الأشياء يصعب وصفها، ولكن نظرة حبيبة المتولهة، والمطمئنة في الوقت نفسه، مقترنة بنظرتها الى جوهر، المطرق والمبتسم إبتسامة كأنها صدى لإبتسامتها، ولم أشك أن إطراقه كان لتجنب النظر اليها هي بالذات. في تلك اللحظة بالضبط بدأت أربط بين أشياء لم أكن أتصور أن بينها رابطا.

تذكرت ما سمعته حين ذهبت يوما الى بيت أهل جوهر وكان قد إختفى عن نظري ليومين. كدت أقرع الباب ولكني سمعت من الداخل أبوه يكلمه معنفا، وفهمت من الكلام أن جوهر ذهب الى مكان ما مع إمرأة متزوجة وصفها أبوه بأنها "لاعبة على ستين حبل...." وأضاف " ألا تخاف على نفسك؟". الحقيقة أني لم ألاحظ شيئا مريبا من النوع "المخيف" على حبيبة، فهي زوجة تهتم بعائلتها وكأي ربة بيت ولكنها أكثر انفتاحا ولا تمانع في أن تتبادل الحديث مع أي رجل بلا حرج. مع ذلك فإن نثار الكلمات التي سمعتها في وقفتي القصيرة تلك لو كان لها أن تؤشر لي على إمراة فلن تكون سوى حبيبة،

ولكني لم أدرك هذا وقتها، وعدت أدراجي الى البيت دون أن أرى جوهر ذلك اليوم. يبدو أن صاحبي إعترف لأبيه دون كثير مماطلة.

*

نزلت وجوهر عند شجرة التوت كالعادة. عندما مررنا بها لاحظ جوهر وهو يشير اليها قائلا:

-هل ترى.... لم يعد أحد يعلق شريطا أخضر عليها.

قلت له:

-لقد وضع جميع سكان الحي تقريبا أشرطتهم عليها، فمن أين تأتي الأشرطة الجديدة؟

فيما كان الناس في المناطق المجاورة يشيرون الى حينا، بوصفه (حي السكراب)، فيقولون "فلان بيته بحي السكراب" لأنه بني قرب ساحة السكراب، فإن الناس في حينا تعارفوا، منذ أن لم تكن توجد معالم فيه سوى البيوت، على إتخاذ شجرة التوت الكبيرة الشاهقة المعمرة نقطة استدلال للحي كله، فإذا سألت أحدا أين يقع بيت فلان يقول لك " قبل أن تصل التُكِّيّة بفرعين" أو " في فرع التكية " مثلا.

قبل زمن حكايتي هذه كانت شجرة التوت "الأم" بالغة الضخامة والإرتفاع تقع على النهر الرئيس في مزارع البرسيم المحاذية للهورة التي

يكونها في الأرض المنخفضة فائض مياه سقي الأراضي الزراعية المجاورة، تأوي أسرابا من الطيور ويستظل بظلها الوارف البشر والحيوان، ولكن وقوعها قرب الهورة جعلها بالنتيجة ضمن الأرض التي مسحتها الحكومة لتكون حينا السكني، فدفنت الهورة وسوت الأرض وباشرت البناء في العهد الملكي ووزعت الدور بمناسبة عيد تتويج الملك على من حالفه الحظ بالقرعة وأنعمت الحكومة على حينا بإسم (حي السعادة). صارت شجرة التوت في المخطط عند قطعة الأرض الواسعة المربعة التي تركت لتكون في المستقبل متنزها وزرعوا فيه على سبيل التدشين في محيط القطعة وفي داخلها أشجار الظل، ولكن ما لبثت الأرض أن أطلعت من جديد نباتاتها البرية كالأثل والنباتات الشائكة. وجدنا في المتنزه في أيام القيض خارج بيوتنا الصغيرة، أماكن ظليلة لجلساتنا، ومن بينها الظل البارد المبارك لشجرة التوت المشرفة على فوضى الخضرة التي إحتضنت مكامن أسرار مراهقتنا، أما في الليل فنقضي أيام الإمتحانات متفرقين نذاكر دروسنا تحت مصابيح أعمدة الكهرباء الصفر الموزعة على مسافات متباعدة.

لكن شجرة التوت بدأت تذبل شيئا فشيئا. هل أضر بها الماء الخارج من البيوت الذي كان يتخذ مجراه نحو المتنزه ويصنع عند شجرة التوت

بُرْكة خضراء مزرقة من الماء الوسخ، أم أنها ككل كائن حي وصلت الى نهايتها المحتومة؟ لا أدري. لم يبق فيها غصن إلا ويبس، حتى الأغصان الصغيرة تساقطت، ولم يبق إلا الجذع والأغصان الكبيرة بعريها حائل اللون، وصارت الأمهات في الليالي التي تنقطع فيها الكهرباء يخوفن أطفالهن بها إذا ألحوا بطلب شيء أو رفضوا النوم ويشرن الى الشكل المنتصب كمخلوق غريب رافعا أذرعه العديدة المعوجة نحو سماء داكنة شديدة الوطأة على الأنفاس في ليل تموزي خانق عندما تهرب العوائل الى السطوح علها تحظى بنسمة هواء، أو تجلس في الأبواب مولية ظهورها الى باب البيت الذي ينفث حرا لاسعا من جوفه.

ظلت شجرة التوت هكذا سنتين أو ثلاثا، حتى حدث ما حولها من بعبع يُخَوَّف به الأطفال الى قِبْلَةٍ حميمة لكل محزون ومظلوم ومكلوم ومحتاج، فقد شاهد الناس جذع الشجرة، بعد سنوات الذبول واليباس هذه، يفرز مادة تضاربت الآراء في سببها وصفتها ولكن رجح الرأي القائل أن الشجرة تنزف شيئا أقرب الى الدم في قوامه ورائحته.

كانت أم عواد أول من طوق بالشريط الأخضر الجذعَ النازف، فإبنها عواد كان جنديا في بلد لا يمل من أن يكون في حرب أو على شفا حرب في أية لحظة. بكت كثيرا عندها ومسحت على الجذع كثيرا

وتمتمت بما فتح الله عليها من صلوات وآيات تلتها بكلمات ركيكة ثم قبلتها وطلبت مُرادها أن تحفظ ولدها وتعيده سالما اليها ومضت الى بيتها. خلال الأسابيع القليلة التالية تحول جذع الشجرة الى قطعة خضراء من كثرة أشرطة المراد التي لا يجد طالب المراد بينها متسعا يشد عليه القماشة التي جاء بها إلا أن يضعها على غيرها. هذه الأرملة، أم عواد، من سكان المنطقة قبل بناء الحي وكانت تعيش على زراعة الخضراوات وجنيها ثم بيعها في الأسواق القريبة، وقد حدثني عواد بعد سنوات نقلا عن أمه أن هذه الشجرة كانت تظلل كوخ إمرأة عجوز وحيدة قتل أولادها جميعا في نزاع عشائري عند هذه الشجرة وقد توفيت منذ زمن بعيد وبقيت روحها الفاضلة الثكلى تسكن الشجرة.

*

أفسحتُ مجالا لجوهر ليضطجع ويضع رأسه على فخذي ويواصل القراءة في كتاب التاريخ بصوت مسموع بعد أن مل من وضع الجلوس في الظل الضيق لصف من شجيرات الآس:

-..... في معركةِ شَنْها....

قاطعته مصححا:

-في معركةٍ شنَّها وليس "شنْها"... يعني هذا فعل وليس إسم المعركة.

ضحك وهو ينظر الى الأعلى نحوي. نظرت الى وجهه المتلألئ بضحكة طفولية مرتبكة والى عينيه اللتين تلتمعان كأنهما تترقرقان كلما ضحك. إنتبه الى أني أنظر اليه نظرة ذات مغزى:

-ماذا؟

قلت له متصنعا الأسف:

-ظننتك حبيبتي التي لا يمكن أن تنظر الى غيري.

قهقه وإعتدل في جلسته:

-ما هذا؟ ماذا تقول؟

ألقيت كتابي جانبا وفكرت في طريقة مناسبة لبدء الحديث:

-تساءلت خلال الأيام الماضية..... ما الذي يجبرك على التورط مع إمرأة متزوجة؟ ما أكثر البنات اللواتي تتمنى كل واحدة منهن أن تقيم علاقة معها....

ثم بعد لحظة صمت راقبت فيها كيف تغيرت ملامح وجهه وأنا أتطرق بشكل مفاجئ الى أمر، إن كان لديه أقل رغبة في الحديث عنه، فليس في ذلك المكان وذلك الوقت، ولكني لم أعد أحتمل التجاهل:

-جدياً..... لماذا يا جوهر؟ ساجي خطر.... أخطر مما تتصور.

هز رأسه:

-أنت متوهم يا حكمان.... ليست زوجة ساجي.

شعرت بنوع من الإرتياح وأنا أستوضح منه:

-حقا؟ من إذاً؟ من يا جوهر؟

صمت.. صمت طويلا حتى ظننت أنه لن يقول شيئا بعد. لكنه تكلم.... خرجت الكلمة من فمه مضغوطة:

-أخته....

ملت جانبا وأنا أنظر اليه وهو يشيح ببصره بعيدا عني، وسألته:

-هل تقابلتما في سلمان باك في الجمعة الماضية؟ وقبلها هي التي كنت معها في حديقة الأمة؟

أجاب بصوت هامس:

-سأحدثك فيما بعد.... في الليل.

ونهض متوجها الى البيت. لململت أوراق ملزمتي ونهضت وعبرت المتنزه نحو سقيفة حبش بائع الرقي والبطيخ والتففت حول شجيرات الآس فوجدت مع البائع حبش، سكيرَ الحي ومتشرده عزوز جالسا في ناحية من السقيفة. إختار عزوز يومها أن يقضي الظهيرة مستظلا بظل

سقيفة حبش بدلا من النوم تحت شجرة النافورة المتهدمة غير أن حبش كان يشكو من ندرة المشترين وطلب من عزوز أن يذهب بنحسه بعيدا عنه ليفسح له المجال أن يرى "وجه الله". أجابه عزوز الجالس على الأرض وهو يثني ساقيه ويضمهما الى صدره مطوقا إياهما بذراعيه:

-هكذا هو الرزق. مرة قليل ومرة كثير. ما ذنبي أنا؟

فرد عليه حبش باستخفاف:

-خايب أنت إذا تفسي على الشط تعمي السمك!

بدا على عزوز أنه منتش حتى وهو يسمع سخرية حبش وفي مزاج مناسب لمناكدته ولن يغادر السقيفة فرجحت أنه حصل بطريقة ما على نقود، معونة من أحد الشبان كالمعتاد، إشترى بها قنينة عرق هبهب، شرب منها وأخفاها تحت شجيرة ما ليعود اليها في وقت آخر من اليوم.

عندما وصلت البيت صعدت رأسا الى الغرفة الصغيرة المبنية فوق المطبخ. سرحت بعد قليل في التفكير بعيدا وأنا جالس على أريكة عتيقة أنظر من النافذة الى إمتداد الأسطح الترابية المنخفضة التي تركت دون أن ترصف بالبلاطات. لم أكن أشعر بالغيرة من جوهر، ففي تلك الأيام بالذات كنت على علاقة بفتاة لا ترى نفسها "بنت الحتة" التي يتصارع ويتقاتل الرجال للفوز بها. متواضعة وفي المرحلة الثانوية مثلي. نتبادل

الرسائل ونلتقي لقاءات سريعة وأنا سعيد وراض تماما. كلا لم أكن أشعر بالغيرة من أعز صديق لي بل كنت أشعر بالخوف عليه.

وقد حدثني فيما بعد.....

إن طبع نجية الهادئ ومظهرها الجميل بجسدها الممتلىء وبشرتها، ذات اللون الحنطي الخفيف عند الوجه والرقبة، والبيضاء بياضا مذهلا في باقي جسدها، يكسبانها إثارة من نوع خاص، تبدو رزينة المسلك وأنيقة بسيطة الملبس ولكن خلف هذه الرزانة يكمن إضطراب الرغبات وخلف هذه البساطة عاصفة الشهوة الكامنة التي تنتظر من يوقظها ويطلقها. على كل حال مهما كانت الصدفة التي جعلتهما يجتمعان في مكان ما والكلمات التي تبادلاها لتشكل خطوة التقارب الأولى فقد وفر لهذه الفرصةِ النجاحَ خروجُ الطلاب من المدرسة في تظاهرة ثم توجههم الى مدرسة البنات القريبة التي كانت نجية تدرس فيها ووقوفهم أمامها يتصايحون ويهتفون مهددين كالعادة بأعلى أصواتهم "لو تطلعوهن لو نكسر الجام" إن لم تسمح إدارة المدرسة للبنات بالخروج. كان بعض طلبتنا قد أجهزوا على زجاج نوافذ مدرستنا القديمة المطلة على الشارع قبل أن يتوجهوا الى مدرسة البنات

برغم أنهم خرجوا بموافقة المدير وبتبليغ مباشر منه لكي يجنب المدرسة موجة التكسير، ولكنها الرغبة المتأصلة في نفوس الطلاب في التدمير وتفريغ البرم من الدراسة ومناهجها الرتيبة. تأخرت أنا وبعض الطلاب عند سيارة "إستاد غازي" الفوكس واكن التي كنا نسميها "الأيچه". دفعناها عشرات الأمتار الى أن دار محركها أخيرا. إنطلق إستاد غازي الى بيته بسيارته الصخّابة مخلفا كتلة من الدخان الأسود أثقل من أن ترتفع رأسا وتغادر شارعنا المعبد حديثا الى السماء.

لم يكن أحد يعرف على وجه التحديد لماذا أخرجونا من المدرسة، ولكن الشعارات كالعادة تصب اللعنات على الصهيونية وتهتف بمجد فلسطين، لا بد أن شيئا حدث في مكان ما من الوطن العربي ولا أذكره الآن، فقد كان يحدث الكثير من الأشياء التي تخرج بعدها تظاهرات أفضل ما فيها هي القوة التي يتمتع بها طلبة الثانوية لإخراج الطالبات من المدارس معهم.

فيما نزل الطلبة من الحافلات وشكلوا مع المواكب الأخرى موكبا يسير في شارع الرشيد حاملا اللافتات التي كانت جاهزة بالإنتظار تسلل البعض، كجوهر ونجية، نحو حديقة الأمة أو إتخذوا الإتجاه المعاكس لسير التظاهرات، نحو شارع أبي نؤاس، أو أبعد.

وهكذا تفتح للمسات الفتى جوهر الجسد المفعم بالعصارة ذات الطعم الحامض والأريج المدوخ، وفاضت عصارته ولن يتوقف عن نشر عطره وإحتضان الهواء والشمس. قطرات الوجد المتساقطة على وريقاته تجعله ينوس إنتشاءا ولا يعود يهمه الى أية جهة مال. هذا هو ما حدث مع نجية. لا يمكنها نسيان طعم الرضاب الذي سال في ثنايا الأشجار، ونظراتها السارحة الدائخة لم تكن لتفوت إنتباه حبيبة التي لم تتأخر في حسم موقفها وقررت أن تكون الراعية لهذه العلاقة والمتسترة عليها. ذكريات ساعات أول الليل تغتنمها نجية في غياب ساجي في الخفارة لتلتقي بجوهر في متاهات ساحة السكراب، وذكريات الحافلة ٣٨ وممرات حدائق سلمان باك التي زرعت حديثا بصغار النخل وأشجار الظل. تذهب حبيبة والنسوة الأخريات مع أطفالهن ليتخذن مجلسا في موضع يتبادلن فيه أحاديث ونميمة لا تنتهي ويأكلن ما جلبن معهن من مأكولات تتصدرها الدولمة، فيما تنسل نجية الى ما هو أحلى من كل شيء لتتقاسم حلاوته مع جوهر الذي تبعهن عن بعد وكان في الحافلة يجلس على مقعد من مقاعد الدرجة الثانية الخشبية في أقصى ركن.

*

إن ساجي، الشكاك أصلا والحساس لأي تغير، لم يكن هو أيضا ليفوته الإنتباه الى أن شيئا ما يجري. سفرة الى سلمان باك بمناسبة وبدون مناسبة مع لمة منتخبة من نساء الزقاق، أو الى بارك السعدون. ربما إنصب شكه أول الأمر، كما حدث معي، على حبيبة قبل أن يلاحظ التغييرات التي طرأت على سلوك نجية، ذلك الإهتمام بالنفس، بالمظهر، بالجسد، والذي لا يعني سوى شيء واحد هو وجود رجل. إهتمام إنثى إكتملت أنوثتها ولم تعد العلاقة مع الرجل بالنسبة لها لغزا سابحا في الخيال، وقد لاحظ مرات عديدة وجود نجية في البيت قبل الوقت المعتاد للمجيء من المدرسة أو متأخرة عنه. لم يمض طويل وقت حتى شاهدهما بنفسه في وضع لا يحتمل التأويلات، ولكنه كان يمتلك من المكر قدرا كافيا لينسحب دون أن يثير ضجة.

كنت على خوف دائم من أن يقضي على جوهر الخطرُ الكامن في جماله. جماله المغوي وغير الممتنع سيوقعه في مشكلة قاتلة يوما، هذا كان هاجسي الدائم، ولكني مثله عاجز عن أجعله يعيش بمعزل عن تأثير جماله عليه. جماله من النوع المتسلط فيما هو طيب ومتواضع، وسيكون الضحية لهذا التناقض جسده أو حياته... أو كليهما. يتراءى للمرء أن

جماله يتكفل له بكل شيء فلا يحتاج كغيره أن يتكبد عناء التودد فيقضي الليالي يفكر كيف يستطيع التقرب الى هذه او تلك من الفتيات. أحيانا يخيل الي أنه يقوم بالعلاقة ببساطة الطيور البرية، ومع ثقتي أنه، كالطير، ليس لديه الشيء الكثير ليقوله عن علاقاته إلا أني بقدر ما كنت خائفا عليه كنت منزعجا منه لأنه لا يتحدث نهائيا إلا إذا طلبت منه ذلك وسألته عن كل تفصيل، وحتى في التفاصيل يحجم أحيانا عن الجواب أو يراوغ كالطفل. إنزعاجي منه كان الوجه الآخر لخوفي عليه كما أظن بعد كل هذه السنين. من الصعب علي الآن تفسير هذه التناقضات. لماذا أنا خائف عليه، الخوف الذي قرنته بمحاولتي أن أضع مسافة مناسبة بيني وبين عالمه الداخلي، وفي الوقت نفسه أنا منزعج منه، الإنزعاج الذي يثير فيّ أحيانا فضولا سرعان ما يكبته ميل غامض أسميه تعقلا.

أثبتت مخاوفي أنها أكثر من مجرد توقعات فتى يدعي الحكمة، وإذا كان تعبير " أحسست بالخطر" مناسبا لتوضيح ما أحسست به وقتها فهذا هو.

زوج حبيبة معروف بكونه "كسار رقاب"، وكيل أمن لا يتورع عن الوشاية حتى بالصديق. يجلس في بدالة الهاتف ويتسقط الهفوات

وزلات اللسان التي قد تصدر عن المتخابرين حتى ولو كانوا من جيرانه فينقلها الى مدير دائرة الأمن.

أخذ ساجي يهتم بنا إهتماما ملفتا. يأتي نحونا وهو يتكفأ بمشيته وقد أرجع ذراعيه الى الخلف قليلا وباعد ما بينهما وبين جسمه، ويجلس معنا حين يرانا وحدنا أو ضمن مجموعة جالسين في مكان ما، ويشترك معنا في الحديث متصنعا الأريحية والتواضع مع الأصغر منه سنا، وعندما يجد فرصة يحرف الموضوع نحو محذور من المحاذير. ينسحب البعض بعذر ما فيما يبقى البعض الآخر متجنبا قدر الإمكان الوقوع في الفخ. أدركت متأخرا أنه كان يقصد جوهر، ينظر اليه نظرة نفاذة محاولا أن لا تفصح نظرته عن حقده. تحدث لنا مطولا عن حرب حزيران التي لم يكن قد مر عليها سوى بضعة أشهر. يخيل الي أن جوهر من جانبه كان يشعر أمام ساجي بالذنب بالقدر الذي كان يشعر به أمام أبيه. كان يجلس محرجا في الوقت الذي يحافظ فيه على تماسكه من أن يزل لسانه بشيء، ينظر الى ساجي نظرة طفل يجبره رجل كبير على الإستماع الى شيء ممل وينتظر بفارغ الصبر، وبأدب، متى ينتهي حديثه.

*

أرى الآن الأحداث التي تلت متسارعة في ذاكرتي كأنها حدثت في يوم واحد ولكنها أكثر وطأة علي من كل ما إحتفظت به ذاكرتي عن تلك الأيام. لم نشعر إلا والخبر جاءنا بإلقاء القبض على جوهر وعدد من فتيان الحي في قرية الجوبة المجاورة، ثم عرفنا السبب الغريب التافه الذي أوقعهم في قبضة رجال الأمن. لقد نفذ ساجي إنتقامه، وبأيسر السبل. أعطى سعد مخزن مسدس مليء بالطلقات ليذهب به الى شخص في قرية الجوبة ويعود منه بالنقود التي وعده بأن يعطيه حصته منها طبعا. لا أدري إن كان ساجي قد خطط لكل التفاصيل ولكنه كما يبدو نصح سعد بأن يصطحب معه أحدا وأشار الى جوهر وفتى آخر إسمه مجيد كانا يقفان في الطرف الآخر من الزقاق، ولم يستطع هذان مقاومة الفضول ومرافقة سعد في هذه المهمة التي لا تخلو من الإثارة كما خيل اليهما.

بعد يومين أطلق سراح سعد ومجيد، ولكن جوهر لم يعد معهما. مضت عشرة أيام وفوجئنا بالشرطة تداهم بيت ساجي الذي لم يره أحد منذ أسبوع. سرعان ما شاع بين الناس أن ساجي قتل، وأن أخته هي التي قتلته بضربة مطرقة على رأسه وقامت حبيبة بتقطيعه إربا وألقت بأوصاله في بالوعة الدار لحماية نجية من عواقب فعلتها.

يمكنني تخيل ماحدث على النحو التالي:

إن ساجي، كأمثاله من الذين يعتمل في صدورهم كره لأن يروا أحدهم يعيش حياة سعيدة أو يمتاز بميزة تجعله محط الأنظار أو الإعجاب، لم يكن ليرتاح لفتى فائق الجمال كجوهر، وكان أصلا، ليسوغ إستهانته به، يرى فيه فتاة بإهاب فتى، وليس من السهل عليه والحالة هذه أن يرى جوهر على علاقة بأخته فكأن جوهر قد فعل معه ما رآه يفعله معها.

لا بد أنه في يوم مقتله، وهو في ذروة نشوته الإنتقامية، لمّح تلميحات فهمت المرأتان منها أن جوهر ذهب ضحية مكيدة مباشرة من ساجي. كل إنسان مجرب يمكنه إدراك ضراوة مشاعر إمرأة تفقد من تفتح جسدها على يديه وأينعت أنوثتها تحت إنهمار رجولته الجميلة وفحولته المتدفقة، هذا الجسد الذي إحتوى الوجود كله وأصبح هو التجلي الوحيد ولا تجلي غيره للسعادة والمتعة يتحول الى جسد لبوة جريحة تكتم أنينها لدواعي كبرياء أو مراعاة لقيم عائلية أو إجتماعية، ولكنها يمكن أن تنفجر وتفتك في أية لحظة، وكل مجرب يعرف أن من طبيعة المرأة إذا عشقت رجلا فإنها تكون مستعدة لأن تضحي بكل شيء وتتبعه ولو كانت ذات زوج وأطفال، فالهوى يعصف بكيانها كله ولا تعود ترى

شيئا غير ذلك الرجل، ولعل هذا ما حدث أيضا لحبيبة ورأت في جوهر جمالا ورجولة تتوق لأن تراهما يجتمعان في شاب تتمنى لو أنه رجلها الذي تقضي لياليها بين أحضانه وكان تسهيلها للقاءات نجية به والتغطية عليها تنفيسا عن هذه الرغبة المكبوتة.

ربما كانت البداية برد حذر من حبيبة على تلميحات ساجي:

-إنه ولد طيب لا يستحق أن يصيبه ما أصابه.

يثور قائلا:

- لو إحترم نفسه ولم يتعرض لشرف الناس كان أفضل له وأسلم!

فتعدان قوله هذا تلميحا الى أنه وراء إعتقال جوهر بمكيدة الرصاصات. يتطور الجدال شيئا فشيئا الى شجار وتفيض النفوس بما تكتم بتلميحات وتلميحات مقابلة فيعمد الى صفعها بقوة قائلا لها:

- أنتِ رأس الفساد!

وقد يبدر من ساجي ما هو أعنف ولا يتوقف عند حد إلا بضربة المطرقة القاضية. يسقط على الأرض ويصبح رأسه في بركة من الدم ولا ترى حبيبة حلا للمشكلة الرهيبة غير أن تتخلص من جثته بأقرب الوسائل وأسرعها وتزيل آثار القتل.

لا أحد منا يدري ما كان مصير نجية وأين إختفت هي وطفل حبيبة، ولم نعد نسمع شيئا بعد يوم المداهمة ذاك سوى صرخات حبيبة. أجل... تصوروا صرخات إمرأة تتعالى من مركز الشرطة، في أعماق الليل، فتنفذ من الفتحات العلوية المستطيلة للجدران المواجهة للأرض الفضاء الواسعة وتصبح، في هدأة الليل، هي والسماء مثل مكبر هائل للصوت يمكن سماعه في جميع أنحاء الحي.... "لخاطر الله.... لخاطر العباس.... يا ناس .... ياعالم..... راح أموت...."، وكل كلمة من هذه الكلمات كانت صرخة طويلة مدوية تحيل ليل الساكنين قريبا من المركز خصوصا، الى عذاب لا يوصف، وإذا ما بدأ الصراخ منذ وقت مبكر في الليل فإن نفوسهم تعاف طعام العشاء. حتى حبش لم يعد يستطيع، وهو قريب من المركز، أن ينام الليل، ولو لم يسمع صراخا، لقد إنتقل الصراخ الصاعق الى داخله وسكن رأسه، يدوي في جمجمته كلما تمدد وأراد النوم أو خلا الى نفسه، ولذلك أصبح يرحب بوجود عزوز قربه ليلا فيتشاغلان بالحديث، وهما يوجهان نظرات زائغة بين الحين والآخر نحو المركز كلما سمعا صوتا أو ضجة، وذات صباح طلب حبش من صبي المقهى القريب، إذا ذهب الى المركز بطلبية شاي، أن يحاول الوصول الى المكان الذي تحتجز فيه المرأة ويرى ماذا هناك.

إحتال الصبي وهو يحمل آنية الشاي ليسترق نظرة الى زنزانة حجز النساء، ووجدها هناك، وحدها ولا توجد إمرأة معها. عاد مخروعا لما رأى من خلال القضبان، قال رآها عارية تماما، جالسة على الأرض وثدييها يتدليان على فخذيها، وقد واجهت في جلستها جدار الزنزانة الشاهق. ران صمت ثقيل على حبش وعزوز فيما تركهما الصبي عائدا الى المقهى.

إن ضباط المركز وشرطته، فضلا عن كون القتيل وكيلا لهم ومقربا منهم وفقدانه خسارة كبيرة لمصادر معلوماتهم، قد أصابهم الذعر لإقدام إمرأة على قتل زوجها، (فقد إدعت أنها هي التي قتلته)، ومن ثم تقطيعه وإلقاء أوصاله في بالوعة الدار، كان رد فعلهم الغريزي أن يجعلوها عبرة لغيرها، مع أنها إعترفت بإرتكابها الجريمة.

مضت بضع ليال لم يسمع بعدها أحد الصوت الصارخ المميز، وتنفس حي السعادة الصعداء.

*

إقتربت الشمس من كبد السماء ولم يعد الظل، حيث جلست عند حائط المدرسة الإبتدائية، يحميني من حرارتها. كنت على وشك النهوض عندما خيم ظل شخص علي والتفت فإذا بي أرى سعد. لم

أنهض وعدت الى جلستي مستندا بظهري الى الحائط وأنا أتجنب النظر اليه. كيف وجدني؟ لم أكن أطيق صحبة أحد ساعتها بينما كانت الكآبة تكاد تفقدني رشدي لما حصل في الأيام الماضية فإخترت مكانا أنعزل فيه بعيدا عن حركة الناس في يوم الجمعة ذاك. لقد إشتقت لصاحبي جوهر... إعتصرني الحنين لجلساتنا وأحاديثنا، إشتقت حتى لضحكته المدارية لإرتباكه أو خجله عندما يغلط. لم أكن أتصور أن جوهر مهم عندي الى هذا الحد، إكتشفت أني عندما كنت أحيانا أبتعد عنه فلأني مطمئن الى وجوده دائما وسرعان ما نعود معا، أجل.... هذا هو السبب وليس سخافاتي عن الإبتعاد عن حياته الداخلية والتفلسفات التافهة الأخرى. أما الآن فأنا ضائع، وحائر لا أدري كيف أعيد تنظيم حياتي من دونه.

نظرت بطرف عيني الى سعد وهو يقول:

-ألم تسمع بأن جوهر أطلق سراحه؟

إنبعثت في داخلي فرحة حزينة ولكني تماسكت وانتظرت أن يتم حديثه...

-.... أتوا به عند منتصف الليل وأنزلوه عند الشارع العام وجاء مشيا الى البيت. كان حافيا وثيابه رثة وقد شاهده حبش تحيط به

الكلاب السائبة تنبح عليه وهو يسير كالمنوم مغناطيسيا...

لم أستطع تحمل البقاء مصغيا لهذا الجزء من حديثه فنهضت سريعا وخطوت عدة خطوات مبتعدا ولكني توقفت واستدرت نحوه عندما سمعته يقول:

-يقول حبش أن وضعه لا يسر أحدا.... خصوصا وجهه.....

وأنا أحاول ان أطرد من رأسي تصور ما أوحت به كلماته لي من تشوه لوجه جوهر لم أملك إلا أن أنظر اليه ساخطا فنبرته لم يكن فيها ما يوحي بالألم والأسف. قال جملته الأخيرة ببرود حيادي لم يعجبني وخرجت الكلمات من فمي دون إرادتي:

-هل تتشفى به؟

إرتبك لردة فعلي وبادر الى القول:

-أبداً... أبداً.

ولم يزد على ذلك.

توقفت على مبعدة من بيت أهل جوهر، كان الباب موصدا ويرين الهدوء والصمت عليه. لا بد أن بعض الجيران قد علموا بعودة جوهر، ولكني رجحت أن أهل جوهر، من إغلاقهم للباب والصمت المطبق، لم يكونوا يرغبون في أن يزورهم أحد بالمناسبة. تخيلت جوهر ممددا في

إحدى الغرفتين الصغيرتين تعكف أمه وأخته على مداواة جروحه والإهتمام بنظافته، وشيئا فشيئا مثلت لي الهواجس ملامح مفزعة، لا بل إن هواجسي ذهبت الى حد تصور ما يمكن أن يكونوا قد فعلوا به غير الضرب والتجويع. هززت رأسي بعنف وتابعت طريقي نحو بيتنا بخطوة سريعة. أنا متأكد من أني لو طرقت بابهم في ذلك اليوم لرحبوا بي وسمحوا لي بالدخول ككل مرة زرتهم فيها ولكني فضلت أن أؤجل هذه الزيارة بضعة أيام الى أن تتحسن حالته إذ من الصعب علي وعليه أن أراه في حالته تلك، ولكني ندمت فيما بعد، ولا زلت نادما، على قراري هذا، لأن هذه الزيارة لم تتحقق ولم نلتق أنا وجوهر الى الأبد.

قال سعد بأن رجال الأمن عادوا وإعتقلوه، ولكن أم عواد قالت لي أنها رأته في جوف الليل عند شجرة التوت يبكي ويدعو الله: " اللهم إنتقم منهم كما آذوني.... وأذلهم كما أذلوني.... لقد شوهوا وجهي يا ربي..."، ثم أخرجت سيجارة من علبتها (الجمهوري) وأشعلتها من الجمر في المنقلة التي كانت تضع عليها دائما قوري الشاي، وأكملت قائلة: "قلت له إذهب للعجوز الطيبة التي تسكن روحها الشجرة. لن يقلقك عندها شيء بعد... لا جوع ولا عطش، ولا هم ولا غم، ولن يتعرض لك أحد"، ودفعت بعودٍ بعضَ الجمرات لتجعلها تحت

القوري. هزت رأسها متأملة في التماعات الجمر "أظنه فعل كما نصحته وذهب اليها".

لكن أم بدرية قالت بأنها رأت السيدة الجميلة تصطحبه معها في السيارة نفسها التي رأيناها تأتي لزيارتهم فيها.

فوجئت ذات يوم بأثاث أهل جوهر محملا في شاحنة وأبو جوهر يقفل الباب بقفل ويصعد الى جوار السائق. كنت على مسافة وإنطلقت الشاحنة قبل أن أصل اليها. تمنيت وأنا أراها تستدير في الشارع المعبد، إن لم يكن جوهر قد ذهب مع السيدة الجميلة، أن يكون خلف قطعة من قطع ذلك الأثاث، يخفي نفسه عن أنظار العالم، ليس في قبضة الأمن، ولا في العالم الآخر عند عجوز طيبة فقدت أبناءها جميعا، بل ينظر إليّ من فُرْجةٍ مودعا بصمت. منذئذ وأنا أتمنى أن أراه، أصادفه في طريق أو مكان. أتعرفون.... بعد كل هذه السنين... أحلى ما في الأمر، حلاوةً حد البكاء، أني لا زلت أتذكر جوهر كما كان.... وجهه الأبيض الناعم الدائري المشرب بحمرة خفيفة عند الخدين والذي يعلوه شعر سرح فاحم السواد ينزل من الخلف على رقبته، وعينيه الواسعتين العسليتين، ورموشه الطويله، وحاجبيه المقرونين، وشفتي فمه الصغير الممتلئتين اللتين تفتران عن ابتسامة خجول غالبا ما تشع من ملامح وجهه كلها

حتى وهو مطبق فمه. يتمدد ويضع رأسه على فخذي بعد أن يمل من الجلوس، ويضحك لي وأنا أصحح له أخطاءه. إنه هناك... في مكان ما يعرف أني لا بد أن أمر به يوما.... جالس بانتظاري.

شباط ٢٠١٨

القبر الجماعي

قال (ثويني) لعمال المجارف الذين يعملون داخل القبر الواسع:

- لا تنزلوا بالحفر عميقا .. أوشكت على الظهور ولا نريد إلحاق الضرر بها.

كانت نبرة صوته تشي بما يعتمل في صدره من إنزعاج حتى أنه لم يطق أن يلفظ كلمة جثث. تلفت يمنة ويسرة يراقب العمال وهم يرفعون التراب بمجارفهم ويلقونه خارج الحفرة الطويلة في تلك الأرض السبخة مترامية الأطراف، بعيدا عن البساتين التي إعتلى شريطها قاتم الخضرة الأفق الشرقي. تأفف رغما عنه بصوت مسموع. لم يكن يحب أن يشترك في هذا العمل، وفي هذا المكان.. في هذه الحفرة بالذات. لكن دائرة الآثار التي يعمل فيها كلفته بالمهمة كما كلفته من قبل بمهام مماثلة في مناطق مختلفة من المحافظة...

((إشارة الى توجيه السيد المحافظ نظرا للحاجة الماسة الى موظف له خبرة في أعمال التنقيب يرافق الخبير الأمريكي في الإشراف على انتشال جثامين الضحايا من قبور جماعية ...)) هكذا كان يقول الكتاب دائما. تضايق أول الأمر وإحتج عند المدير قائلا:

- هل ستتحول من التنقيب عن الآثار الى نبش القبور؟

أجابه المدير وهو منشغل بتدقيق أوراق أمامه والتوقيع عليها دون أن يكلف نفسه النظر اليه:

- لا عمل لدينا الآن في الآثار يا ثويني ثم أنه تنسيب مؤقت ليومين أو ثلاثة ليس المطلوب منك خلاله سوى الوقوف والتفرج تقريبا فلماذا أنت منزعج هكذا؟ هم يرون أن التنقيب عن الآثار لا يختلف عن عمل نبش القبور... روح يا أخي وفض القضية الله يخليك!

إعترته رعشة الخوف حين أراد أن يستقل سيارة الدائرة نحو مقر المحافظة. لم يكن يدري أي قبر سيحفر بالضبط ولكنه عرف أن المكان منطقة ريفية تذكره بما لا يحب أن يتذكر. للحظات بدا له أنه لن يستطيع حتى رفع رجله للصعود. تريث قليلا .... حدجه السائق بنظرة استعجال فلملم شتات إرادته بعناء وصعد...

لكنه في الطريق أخذ يتصور الأمر على نحو آخر. ساعده الهواء البارد، الذي إندفع نحوه من الفتحة الصغيرة التي تركها لدخول الهواء من النافذة، على أن يستعيد هدوءه. جفت حبات العرق التي تفصد بها جبينه، وخفت الحرقة في عينيه، وفيما كان صفّا المناظر اللذان تمر بينهما السيارة مسرعة يندفعان عكس شريط ذكرياته المنفلت، فكر في مسار

آخر للمهمة... مساره هو. إن ما تصوره خاتمة غير محمودة، لا بل مدمرة، طعنة أخيرة غائرة تأتيه من سره ذي الحدود القاطعة المثلمة، ربما كانت، ربما، هي ضربة الحظ التي يئس منها حققتها عناية إلهية. سيكون هو المشرف، فليحاول إذن أن ينتفع بما ساقه القدر اليه. ربما وجد خلاصا، أو يقينا يعفيه من الوساوس لما تبقى من عمره. كل ما يتطلبه الأمر حسن تدبير في الفرصة السانحة.

سرعان ما يصبح واضحا أن العمل بالمجارف غير ممكن. ظهرت أجزاء من ثياب، وعظام هنا وهناك. نظر هو الى ناحية من الحفرة. لمح طرف ثوب بدا له نسائيا. كان الثوب الذي إرتدته من القطيفة.. وهذا قطيفة أيضا... أكيد. حال لونه الأزرق، والزهور الصفر الصغيرة التي كانت يوما تلتمع وسط الإزرراق الممتلئ بعنفوان جسدها أخذت من الإسوداد مسحة لها. لم تختف تماما، صارت نقاطا رمادية داكنة. كبح رغبته، وهو على بعد خطوتين، في أن يقترب أكثر من الخرقة التي مزقتها ضربة مجرفة لا مبالية فكشفت عن سنين ترابية باردة امتصت نعومتها، وأزاحت التراب المالح الذي أباد نسيجها ومنحها من ملحه قتامتها وضياع ألوانها. قاوم وسواسه لائذا بالخوف ممن حوله ولو الى حين،

مستسلما لوهم سماه لحظتئذ تحفظا، أو بالأحرى حكمة، وكم من وهم تمثله تعقلا.

التفت الى الخلف ليتأكد أن الخبير ليس قريبا إذ قد يلومه على السماح بالحفر الى هذا العمق بالمجارف حتى ظهور البقايا، وهو لا يدري أن ثويني تعمد أن يترك العمال يبلغون هذا العمق بالمجارف اختصارا للوقت، واستعجالا للخاتمة التي كلما تأخرت وجدت الهواجس لها في نفسه مرتعا تستمد منه قوة وبقاء. قال للعمال:

- يكفي!

لفظها كأنه لم يكن يأمر العمال بل ينهر رعدة نشرت دوائرها في بركة عقله. خرج العمال وتوجهوا ليضعوا مجارفهم في مكان واحد قرب العدد الأخرى. خرج هو أيضا من الحفرة التي لم يتجاوز عمقها المتر، وإستدار فوق كوم التراب ليواجهها، ليلقي نظرة أوضح وأوثق على ما تضمه. كان بإمكانه أن يرى تحت طبقة التراب، الخفيفة في أماكن، ويعرف من أجزاء الثياب الظاهرة، أن المدفونين الى يسار ثوب القطيفة امرأتان أيضا إذ ظهر جزء من عباءة، وثوب آخر ونعال نسائيين، وعظام أقدام لايزال بعضها داخل النعل. لا تعود تلك العظام للابسة القطيفة التي اختفت معالمها السفلى من الوركين فما دون تحت التراب

فيما أختفى الجزء العلوي من الصدر فما فوق تحت كثافة ترابية أخرى. بدا أن المدفونين الى يمينها هما رجل ببدلة عسكرية، ورجل من الريف كان عقاله عند موضع القدمين أظهرته فوق التراب ضربة مجرفة. كان يجب أن يكون مسعود الى جوارها بدلا من العسكري. هل لاتزال جثته مطمورة تحت الآخرين، تحتها أو تحت العسكري أو تحت المرأة الأخرى؟ احتمال بعيد... إذ لا بد أن يظهر منه شيء. أين ذهب يا ترى؟ تفحص البقايا المكشوفة على طول الحفرة. لا يوجد ما يبشره بيقين.

كان الخبير الأمريكي مقرفصا عند القبر الثاني البعيد الذي تم الكشف فيه عن الهياكل وغطيت بغطاء من المشمع على أن يقوم العمال بتغطيته بألواح من الخشب الى الغد لتسجيل البيانات والتصوير ثم ترفع الهياكل بعد وضعها في أكياس. قبران حتى الآن... ويقولون يوجد قبر ثالث. القبر الثاني يبعد حوالي ثلاثين مترا، وباتجاه مختلف. قدر الخبير أن القبرين لم يحفرا في اليوم نفسه. لكن ثويني متأكد من شيء مختلف، ولو كان الأمر بيده لما حفر القبر الثالث. كل ما يريده هو الآن عند قدميه. نظر في ساعته... كان العقرب يشير الى الرابعة. لازال الخبير مقرفصا فاتحا على ركبته مفكرة ذات غلاف جلدي يسجل فيها ملاحظاته. تمنى أن لا يأتي الخبير لمعاينة الحفرة. شاهده وهو على وضعه

يرفع رأسه وينظر باتجاهه... ليس اليه بل الى ما ورائه، عرف أنه ينظر الى العسكريين الأمريكيين الذين نادوا عليه بكلمات لم يفهمها ثويني. نهض الخبير وتوجه نحوه فابتعد هو عن الحفرة لكي لا يكون وقوفهما عندها.

خاطبه الخبير وهو يتقدم نحوه:

- حسن.. مستر توينبي.

تصنع الابتسام. كم يكره هذا الإسم الذي أبدله هذا الأحيمر بإسمه على سبيل الملاطفة. نظر الخبير الى ساعته أيضا ثم الى مدرعات الهمر الواقفة عند النهر القديم المهجور والذي بدا جانبه كسدة توازي الأفق الغربي حيث الشارع العام. سادت حركة بين الجنود وأخذوا يصعدون الى عجلاتهم المصفحة. هل يهمون بالمغادرة؟ لكن الذي فهمه أنهم لابد أن يبقوا، ولو على وجبات، الى أن ينتهي العمل غدا وتستلم الموقع جهة عراقية. لا شك أن تغييرا قد طرأ على أوامرهم. قال له الخبير بلهجته الأمريكية التي يراها مبتورة الأصوات غائمة الكلمات عكس اللهجة البريطانية التي يرتاح لوضوحها ويفهمها أكثر:

- مستر توينبي... سأذهب الآن وأعود غدا. حاول في الوقت المتبقي تهيئة القبرين للتوثيق غدا.

سأله ثويني وهو موزع بين الارتياح لأنه سيتركه وحده حرا في التصرف وبين التخوف مما تخفيه المغادرة المفاجئة وراءها:

- والحراسة؟

أجابه بتلك النبرة الحيادية الباردة التي اعتادها منه:

- أذا لم يعودوا قد يبعثون حراسا مدنيين ليقضوا الليل هنا معك ومع عمالك الحكوميين.

ثم صمت هنيهة كأنه تذكر شيئا وأضاف:

- إعتن بالعمل.. الهياكل يجب أن تبقى كما هي و....

أكمل وهو يتوجه نحو الجنود:

- إطمئن مستر توينبي... إطمئن... كل شي تمام!

قال العبارة الأخيرة باللهجة العامية العراقية لافظا ميم تمام بفخامة.

هرست إطارات الهمرات التربة السبخة ، وهي تستدير نحو القنطرة. صعدت القنطرة الحديدية الواحدة بعد الأخرى نحو سماء غيومها قليلة ثابتة، ونزلت الى الجانب الآخر متخذة مسارا متعرجا نحو الشارع المعبد لا يرى منها سوى أبراجها المغطاة بالشباك. الآن يمكنه أن يفكر... دون ضغط... دون توتر. لابد أن يتم الآن ما ينوي عمله...

حتما سيكون الغد يوم هرج ومرج... وسيأتي عدد من الأهالي ليروا إن كان بين الذين دفنوا هنا قريب لهم، وسيحاول فضوليون من هذه الأنحاء الإقتراب ليروا عيانا ما تناهى الى أسماعهم، من هذا المكان الشاسع البور ليلا، قبل خمسة عشر سنة، أصواتا بعيدة... إطلاق رصاص كثيف وهدير محركات ومصابيح سيارات قصية تثير قلقهم ومخاوفهم من مداهمة ليلية فيرهفون السمع متلملمين على أنفسهم، متوقعين أن تصيبهم تلك الأيام المدلهمة ببعض شرها، وقد لا يكون، على الأرجح، أهون الشرين.

كان العمال المؤقتون قد تفرقوا الى مجموعات من أثنين أو ثلاثة يتبادلون الحديث قرب العدة والصناديق الخشبية، وبعضهم يمزح ويتضاحك. زم شفتيه مستاءا. قال بصوت يسمعه الجميع:

- لا أظن أننا سنستطيع كشف الهياكل هنا في الوقت المناسب اليوم. إذهبوا وغطوا تلك الحفرة بالأخشاب ثم إنصرفوا ولا تنسوا أن تعودوا مبكرا.

التفت الى (حواس) الذي يعمل معه في الدائرة. رآه مكشرا وهو ينظر اليه نظرته التي طالما اعتبرها ماكرة، متزلفة، تخفي كل نوايا السوء التي يمكن أن تخطر على باله، ورأى شفتيه تكادان تفتران عن كلام ما.

كان يتوقع منه كما يتوقع من المدير أي قول. خشي أن يقول هذا الحواس أيضا قولا سخيفا أو يسأله تملقا سؤالا سمجا من نوع ((بشرفي إستاد أنت تفتهم... كيف عرفت أننا على وشك الكشف عن الجثث فطلبت منا الحذر في الحفر؟)) وربما لن يكون سؤاله تملقا بل تلميحا خبيثا يخفي خلفه تهمة يوجهها اليه، أو شكّاً ... بماذا يشك يا ترى؟ هل يعرف شيئا؟ إن ثويني من جانبه لن يعجزه أن يجيب جوابا مقنعا. يمكنه أن يقول له أن التراب إذا كان تحته شيء مدفون كهذه البقايا بينها فراغات بحكم التآكل والتحلل فإن طبقة التراب تتحرك في مواضع عند الضغط عليها. لكنه لم يكن يرغب في تبادل الحديث معه، وأيا كان ما سيقوله، ولو كان مديحا حقا. بادره بحزم:

- إذهب مع جماعتنا في الخيمتين!

رمشت عينا حواس كأنه يهم برد ما لكنه لم يقل شيئا. استدار دون أن تفارقه تكشيرته إلا أن عينيه فقدتا لمعانهما فيما يشبه الخيبة أو الخجل. تابعه ثويني بنظره وكان يسري في نفسه قلق يتزايد كانبعاث مياه جوفية، أدرك في هذه اللحظة، وهو يمتلئ بالحفرة الفاغرة خلفه، أنه يخاف منه، ربما ستكون هزيمته أمامه فضيحة، غدا ... غدا عندما يتم توثيق كل شيء.. «فرصتي الآن ملك يميني لأحسم الأمر وأبقى في

مأمن من الجميع، ومن هذا المنافق النمام، هذا الذي لم يكف عن إزعاجي طيلة السنوات الثلاث الماضية. يدور في كل مكان باثا أنواع الأقاويل عني. ماذا يريد مني؟ لماذا هذا الكره الشيطاني؟ قبل عشر سنين كتب عني تقريرا يقول فيه أني أسرق الآثار. هل إطاعة الأوامر سرقة؟ لم أستفد فلسا واحدا وكل ما فعلته أني قيمت القطع تخمينا وأخذوها...لكنه نال جزاءه. شهر في ضيافة لا رحمة فيها عند الأمن العامة وأدبوه تأديبا يستحقه. عادت ريمة في هذا العهد لعادتها القديمة، عاد الى إشاعاته وحيله.. فلان كان كذا.. وفلان عمل كذا.. ثم النغمة الجديدة.. لدي مفقودون...لدي شهداء... ولا أدري ما لديه بعد...)). بصق خلفه.....

في ليلة من الليالي البعيدة كان الغبار الذي يلف المدينة كلها يتغلغل الى الغرفة ويملأها لكنه نام نوما عميقا كعادته حين يكون محبطا أو غاضبا، إحباطا وغضبا لا يجد له حلا أو يجد منه متنفسا، فيلجأ الى النوم، رغم إحساسه بضيق التنفس، مختنقا بالغبار، نام نوما عميقا ولكنه ممرغ بالكوابيس... هو وفتاة لا يميز ملامح وجهها يقفان جنبا الى جنب، ضربه ضابط يشبهه بلكمة على صدرة فتراجع الى الوراء بحركة عرجاء كأنه مسعود. لم يكن يوجد غيرهم... وبدا في لحظة

أخرى كأنه هو نفسه مرتد ثياب مسعود، فيما تقف الفتاة الى جواره وسط عاصفة الغبار دون أن يمسها شيء منه أو حتى يحرك الهواء شعرها الذي ينسدل الى خصرها أسود شديد السواد مانحا وجهها بياضا مضيئا تكدره نظرات خائفة توجهها اليه، نظرات خائفة عليه. مدت يديها، وضعت واحدة على صدره والأخرى على ظهره.

لكن في اللحظة ذاتها يحتل فراغ مكانها. يبقى وحده محاطا بلعلعة الرصاص... يفز مرعوبا.

أليس من المفروض أن يكون تفسير ذلك الحلم أن مسعود حي؟ لم يكن ذلك الكابوس هو الوحيد الذي أخذ يرى فيه من يكرهه يشبهه، يرتديه في كوابيسه. أصبح كلما اختلف مع شخص وتبادلا كلمات مكدرة، في العمل أو في الحي، خيل اليه أن ذلك الشخص يقلد تعبيرا فيه سخرية منه، حركة فمه، أو إيماءة يده، أو نبرة صوته، وربما أكدت المرآة ظنه، يقف أمامها طويلا مدققا في ملامح وجهه وحركاته.

وفي ليلة أخرى يرى نفسه جالسا في ظل جدار النحس، قرب بوابة معبد، على أساس قاعدة كان تمثال إله المكائد ينتصب عليها قبل أربعة آلاف سنة، أشعث الأفكار، متوثب الفرصة، يرميه بنظرة أبدية، قارعة، وحوله الكثير من الرقم الطينية، تطير الرقم وتنقذف لتسقط أوراقا

رسمية في أعلاها شعارات ومختارات أقوال القائد، وعرائض التماسات لا قيمة لها، في الحفرة التي يداوم هو على أزالة التراب فيها جانبا بآلة كمشط ضخم خشبي تغور أسنانه في التراب كالمحراث فيبرز في الخطوط التي تحفرها لون أحمر، له مرأى اللباد، أحمر قان كلون (فرمان) طلاع الجد الثالث لأبيه، الفرمان الذي حدثته عنه جدته أم أبيه وقالت أنه كان عنوان المشيخة وفقد مع اختفاء طلاع. ينطمر لون الفرمان حالما تكشفه الأسنان. تمنعه الأوراق من العمل والرؤية، يغضب ويعتدل. يخرج للصلاة والدعاء. يدعو الله أن يوفقه الى استخراج الفرمان وامتلاك سلطته ومعناه.

كل هذا بسببها، قلقه، وكوابيسه، وهذه الحفرة، وحواس، ومسعود الذي لا هو ميت فينسى ولا هو حي فيتقى. كم مرة قال للمرأة العجوز:

- ابنتك وقحة.... وقحة منذ أن كانت طفلة.

تجيبه العجوز مولولة:

- أويلي... والله تعبت منها... تعبتني إبنة عمك...

واقتربت منه وهي تراقب باب الغرفة، ولكي لا يسمعها أحد قالت هامسة:

- تصور... صاحت بي اليوم.. وخرجت...

ثم أضافت بصوت متعثر:

- ... منذ الصباح... ولم تعد...

ضرب فخذه بيده وقال من بين أسنانه:

- طبعا ... طبعا راحت لصاحبها متعوس أبي المشاكل!

وضعت يدها على خدها فاغرة فمها:

- لا تفوت حظك وبختك... مسعود ابن خالتها...

- ليست المشكلة هنا... كلاهما الى جهنم وبئس المصير. لكن الدنيا مقلوبة.. الجيش والأمن في الشوارع يمسكون بكل مار.. إذا ألقوا القبض عليها مع صاحبها الهارب وجاءوا اليك ماذا ستقولين لهم؟

حشرجت المرأة:

- سودة بوجهي... صحيح والله!

أخذ يزيل التراب بيديه بسرعة العارف عما يبحث. ركز على النصف العلوي. لم يجد صعوبة كبيرة في إزالة التراب. تأمل الجمجمة وتخيل، رغما عنه، الوجه الذي كان، الرأس ثقبته رصاصتان، واحدة خلعت عظمة الصدغ والثانية دفعت عظم الجبهة الى الداخل، الشعر الطويل الذي تساقط الآن حول الجمجمة. كانت هنا عينان ملونتان كأمانيه

ولكنهما جريئتان تشعان حيوية، وكانت توجد شفتان صبيانيتان صغيرتان وأسنان منتظمة بيضاء في فم لا يتوانى عن الجدال، ويفيض عند الانفراد في المطبخ بدندنة ريفية، خفيضة، منسجمة. هاتان اليدان اللتان تبعثرت سلاميات أصابعهما الآن كانتا يوما تتعهدان الشعر بالتمشيط، ترسلانه أو تضفرانه، وترشان الوجه بالعطر، وتمسحان على الرقبة والنحر، وتعدلان أمام المرآة فتحة الثوب التي تكاد تكشف أعلى النهدين اللذين أحتل مكانهما في الثوب الآن تقعر الموت...

- أي ثوب إرتدت؟

- ثوبها القطيفة الأزرق...

ثم كأنها تفضي بسر لا يتجاوز فمها:

-... وهويتها.

فتمتم:

- هويتها؟ هه... إذن فستتوجه معه الى حدود السعودية. إن فكرة الهوية لا يمكن أن تخطر إلا على بال مسعود... فهي معه بالتأكيد! إتفقا وتواعدا!

رأى قرب عظام اليد اليمنى شيئا صغيرا تذكره كانت تضعه دائما في الإصبع الوسطى. أحس بالملمس المعدني، خاتم جعله الصدأ خشنا

وإمحت معالم فصه الذي نُقش عليه إسمها هي. وضعه في جيب سترته. لم يبق لديه كثير وقت. خشي أن يطلع أحد، خصوصا حواس، على ما يفعله. رفع نفسه قليلا وتلفت. لا أحد خارج الخيمتين والعمال لايزالون يغطون القبر الثاني بالخشب منشغلين عنه بما في أيديهم. تحسس الثوب المتهرئ عند فتحة في الجانب فانضغطت تحت أصابعه قطعة منه بشيء ناعم سميك. مد إصبعين بحذر وأخرج الهوية من الفتحة دون أن يتمزق القماش، ثم رفعه قليلا ليرى إن كانت الهوية قد تركت في الداخل على القماش أثرا واضحا حيث استقرت سنوات طويلة. كان يوجد أثر ولكنه لن يكون ملحوظا إلا بالنظر المتمعن. تنفس الصعداء ونهض لينضو التراب عن ثيابه.

في اليوم الثاني لاقتحام الجيش المدينةَ كان ثويني والمجموعة التي معه، عائدين من واجب دورية للجيش الشعبي في الريف المجاور، وكان هو يسير متبرما، منعزلا قليلا عن جماعته، ويحاول جاهدا أن لا يرفع صوته محتجا فقد سجلوا إسمه في القاطع قبل إندلاع الحرب بأيام برغم كل محاولاته التملص، وبرغم تحججه بأنه غير حزبي وأنه خدم في العام الماضي في قاطع الجيش الشعبي.

رآها من بعيد بين المعتقلين يحيط بهم العسكر في ساحة مدرسة ريفية تحت الإنشاء. تعرف عليها من بعيد، رغم التراب الأحمر الذي حملته الريح من الصحراء غرب المدينة فملأ الجو، ورأى مسعود أيضا، ولكنه لم يكن واقفا الى جانبها، بل بدا وكأنه لا علاقة له بها. كان العسكر في حركة دائبة حولهم يصيحون في وجوههم ويعنفونهم، فيما بعض الضباط يسألهم أسئلة لا يسمعها لبعد المسافة. الرجل الذي يرتدي ملابس مدنية والذي قدم من بغداد على رأس لجنة تحقيق ورآه قرب الشعبة بالأمس يمسك بيده سجلا ويراقب دون أن يتدخل. أخذوا يفتشون الرجال ويأخذون ما في جيوبهم ولكنهم لم يفتشوا النساء. رأى رجلا يرتدي بدلة انضباط عسكري يفتش جيوب مسعود ويبدو أنه لم يجد شيئا فلكمه على وجهه. لم يرغب ثويني وأي من جماعته في الاقتراب لكي لا يتورط فيما يجري أو يكلف بواجب آخر. عرفوا أنفسهم لرجال الحراسات المنتشرين حول البناية ومروا مسرعين، ويبدو أيضا أن أيا منهم، باستثناء ثويني، لم يتعرف على أحد من المعتقلين وقد أراحه هذا بعض الشيء.

وصل بحلول الليل الى البيت. لم يقل شيئا للعجوز التي إكتفت، وهي تروح وتجيء في البيت، بمراقبته دون أن تجرؤ على سؤاله عن

الأخبار. انصرفت الى غرفتها حين رأته يخرج من الدولاب قنينة الخمر. أفرغ في جوفه ما كان قد بقي فيها منذ يومين بجرعات سريعة لكي يعجل في أثره. ارتمى على وجهه منتظرا سريان الخدر في جسمه. مد يده الى المذياع الذي كان على الأرض قرب السرير. سمع الأزيز الذي يصدره المذياع عندما تكون بطارياته ضعيفة. خفض الصوت لكي يختفي الأزيز وأخذ يدير القرص بيد مرتعشة وهو مغمض العينين باحثا عن إذاعة تبث ترتيلا للقرآن. التقط سمعه المشوش الترتيل الناعم لعبد الباسط. مسته سحابة ارتياح لسماعه هذا الصوت. منذ أيام شبابه الأول كان يفضل الاستماع لصوتين... أم كلثوم وعبد الباسط ولا يهمه الى أيهما أستمع وهو يحتسي الخمرة. هو الآن بحاجة الى أن يغفو وهو يستمع الى عبد الباسط بالذات، وهو ينحدر في ترنحات خياله المتعب مع تزايد تأثير الخمرة، ينداح في مخاوفه التي شجعها خدر إرادته، في صور متمايلة، مختلطة... قوائم أسماء المعتقلين... غدا أو بعد غد... إسمها وإسم مسعود على رأس القائمة... تعال يا ثويني أنظر...إسم من هذا؟ وهذا؟ أنت في موقف حرج... خذوه!

– لن يدهشني يا ثويني إذا إعترفت لي أو أسر الي غيرك بأنك تخصصت في الآثار لكي تبحث عن فرمان وعظام جدك. لماذا لا

تستطيع العيش ببساطة... دون أن تتعالى بمجد وهمي؟ مجد تتوهم فيه أنك الأفضل؟

نظر ثويني الى مسعود، الى عينيه اللتين تلتمعان بسخرية كلماته وجدّهما معا، الى العينين اللتين لم يستطع يوما أن يرى فيهما لونا محددا، هذه حقيقة كحقيقة أنه لم يستطع يوما أن يفهمه، كحقيقة عجزه فيما بعد عن إدراك السبب الجوهري لإنسياق مسعود مع أناس كان يراهم ثويني فوضويين خرافيين يائسين لم يفلحوا سوى في تعطيل الحياة أياما معدودات ونشر البيارغ والشعارات الدينية في كل مكان. تعذر عليه أن يجد مبررا يقبله عقله لإنقلاب مسعود، هذا الحسي الشغوف بالحياة، تعذر عليه أن يتصور لمسعود موقفين متناقضين يفصل بينهما ليل... ليلة واحدة كانا في أمسها جالسين وبينهما منضدة تزهو بقنينة ويسكي حولها مستلزمات التنصل من العناء، حولها ما يساعدهما على أن يخطوا باتجاه بعضهما بعضا، خطوتين أو ثلاث كما يتوصل الندماء بالخمرة الى مكان محايد، الى أن يصلا نقطة تبادل التواطؤ، أن يكونا غيرهما في التسامح لسويعات، يتناقشان، يتضاحكان، في الحديقة الصغيرة كقفص شجري محاط بنبات متسلق في دار ثويني جمعة الذي يرى أنه شيء جميل أن يحب المرء الحياة على أن لا تشوبها السياسة المريبة التي لا يمكن الدفاع عن

صاحبها. كان أعرف بمسعود من أن يشك في انتمائه الى حزب ولكن مسعودا كانت ميزته التي كأنها خلقت معه هي لفت الأنظار اليه، يشع معاكسة خفية، معاكسة مسالمة، ومع ذلك فهي مزعجة منفرة. يخشى ثويني ما قد تجره عليه علاقته بمسعود من متاعب. يستمع الى سؤال مسعود بعينين نصف مغمضتين إستخفافا:

- هل تعرف رولان بارت؟

- ومن هو رولان بارط هذا؟

عندما يصل ثويني مع مسعود الى درجة يعجز فيها عن محاورته أو يسأم منها فإنه يلجأ الى استنساخ سخرية مسعود، سخرية لا تجاري الأصل ولكنها تناكده...

- أنت لك معرفة بالتنقيب ... شيء لطيف أن تعرف البنيوية.

- البنيوية؟! قرأت عناوين فيها مثل هذه الكلمة في جريدة الجمهورية... أجل...

- رولان بارت منقب.. ولكنه منقب في اللغة.. في النص. أظن أنه كان يشعر باللذة نفسها التي يشعر بها الآثاري وهو يتصور بنية الأثر و...

- وما شأننا نحن الآن، في أيام القصف الغبراء والليالي الدامسة هذه، بما ستقصه علي بربك؟

يضع مسعود الكأس التي كانت بيده على المنضدة. يرتج الإصفرار في الكأس ثم يستقر. يعتدل مسعود في جلسته ناظرا اليه نظرة من يفكر مليا برد مختصر مفحم، في آخر الجلسة، كما في كل الجلسات المتباعدة التي تجمعهما في مناسبة ما، في صدفة ما. جمعهما هذه المرة الظلام الذي خيم على البلد بأجمعه منذ شهر فالتقيا فيه دون موعد أو قصد. كان مسعود مارا، وكان ثويني قد حصل على قنينة الخمر هذه وعدّ مرور مسعود بالبيت قدر الكأس التي تجمع حولها أصنافا من الناس لا يمكن اجتماعهم إلا لها وحولها، لا بل إن اختلافهم في الرأي أو المزاج هو ميزتها، اختلاف يؤدي غالبا، حين تدب الخمر وتسري في مكامن التضارب والأهواء والأسرار، الى الخلاف. لقد قدر ثويني، بعد كل شيء، أنه في تلك الأيام المقلقة التي كأن الدنيا فيها بين إصبعين من أصابع الله لا يدري الى أين سيقذفها بالناس، ليس من شخص أنسب من مسعود للمجالسة، وللجدال، فهو نقيضه المقرب، وذريعته للخلاف الذي لا يستطيع، مهما كان حذرا كعادته، أن يخوضه في مكان

آخر، إنه يمنحه الفرصة لأن يكون، ولو من حين الى حين متباعدين، مخالفا ومجادلا... دون عواقب وخيمة.

إنتظر رد مسعود... ركز على فم مسعود الذي أخذ يفرك براحة يده فخذ ساقه المصابة في الحرب العراقية الايرانية، وإرتفع نظره ببطء، كأنه شارد الذهن، وثبت على وجه ثويني، تقلص عصب فكيه قليلا ثم ساد الإرتخاء الممتزج بالإنتشاء على قسمات الوجه الأسمر الهزيل... الوسيم وسامة سمراء طفولية.

- أنت محق... هذا ليس وقت النظريات الأدبية والجماليات لكني كنت أريد أن أقول لك أن بارت قال مرة أن الفاشية ليست في منع الكلام بل في الإجبار عليه...

- يعني؟

- لقد حاولت جهدك خلال جلستنا هذه أن تقنعني بأن التململ الذي يحرك الناس الآن انحراف...

- انحراف وألف انحراف! كفانا ما رأينا ورأى آباؤنا قبلنا من المآسي والكوارث!

- لقد أُجبر الناس طويلا على الكلام الذي لا يريدون قوله وعلى فعل ما لا يريدون فعله. لم يمنحوا يوما راحة السكوت، إرادة الصمت الذي يعني....

- هجم بيتك... والله كلام قوي!

- كل ما يريده الناس هو أن يرتاحوا من الكلام المفروض، وإن لم يحظوا بسكوتهم سيصرخون!

- ها قد أفسدت علي استراحتي من الواجب هذه الليلة... الذنب ذنبي... أنا أعرفك زين!

-.... ويعني أنك أجبرتني على هذا الكلام... لم تترك لي خيارا!

ما الذي يعرفه إبن السمّاك هذا؟ يتحدث أحاديث كبارا لا يعرف مدى خطورتها. كم مرة يجب أن يجد له عذرا ويخلصه من الإعتقال بحجة أنه شبه مجنون باللغو دون نية سوء؟.... كم مرة يقول لهم حين يطلبون منه معلومات بأن مسعود مجرد شاب يحب أن يردد ما يقرأه لأن رنة الكلمات الضخمة تحلو له. هذا الشاب ضال عن التعقل والإتزان اللذين يقودان الى ما ينفع، أو على الأقل، الى ما يشفع. لطالما رأى ثويني أنه من طبيعة الأشياء أن لا يحسن مسعود السلوك في هذه الحياة بما أسماها حكمة، يرى نفسه من طبقة ومسعود من طبقة أخرى ومن

الطبيعي أن يختلفا في الفهم فهو سليل الشيخ طلاع الذي أنعم عليه السلطان العثماني بالفرمان الأحمر، بزة الشيوخ المرسمين من قبل السلطان العثماني نفسه. لقد وصفت له جدته من جهة أبيه هذا الفرمان... سترة بردنين واسعين، حمراء اللون قانيته، مذهبة الحواف. لكن القدر شاء أن لاتصل هذه المشيخة الى ثويني، شاء أن يهون المقام فيكون قريبه وجليسه سليل السماكة. اختفى جده اختفاء عجيبا. حدثته جدته قالت أن الجد خرج ومعه ثلة من العشيرة الى الصيد في البادية حيث كانت تكثر الغزلان آنذاك فلما جن الليل في الطريق نزلوا. نام طلاع نوما عميقا من التعب فتحين أصحابه الفرصة ليغدروا به وأخذوا فرسه وسلاحه وطعامه، وربما الفرمان أيضا، وتركوه نائما. قد يكون افترسته الذئاب أو استيقظ مع شروق الشمس فلم يجد أحدا، ولأنه مترف لم يألف السير على قدميه في الصحراء تحت لهيب الشمس سقط من شدة العطش في النهاية ميتا. هذا كل ما يعرفه عن جده الأكبر.. حكاية مات شهودها وإمحى اثرها. صحيح أنه تمنى أن يعثر على أثر لهذا الجد، وفي بعض أحلامه، أن يعثر على فرمان طفولته السحري أيضا ((لكن هذا ليس هو السبب الذي جعلني أختار أن أعمل في الآثار بل هي الصدفة، أو القدر، وما يقوله إبن السماك إنما هو

نكتة يرددها على مسمعي كلما تحركت فيه غيرة لا تنفك تنام وتصحو... حين تنام تهمد كحقد متعب، وحين تصحو تتظاهر بأنها الذكاء اللماح، وما هي إلا فصاحة التزويق في الألفاظ))، يخيل الى ثويني أحيانا أن عرقا ما يُنطق مسعود بهذا الكلام، عرق يصله من طرف بأولئك الذين غدروا بجده، عرق يحمله على التشفي فيعقد الضياع القديم بألم جديد.

يثور بوجه مسعود قائلا:

- لا تظن أنهم تركوك طليقا الى الآن غفلة أو تسامحا. كل ما في الأمر أنهم يركزون مراقبتهم الآن على المتدينين. لا يعبأون بمن ليس لديه ميول دينية ويشرب الخمر. يثير شكوكهم أصحاب اللحى والذين يكثرون التردد على الجوامع والحسينيات...

ينهض مسعود وهو يبتسم ابتسامة من توقع أن يسمع هذا الكلام ويؤسفه أن يسمعه..

كأنه من شروط الإنسجام، من قوانين الكون، أن يعودا أدراجهما المسافة كلها، كل الى مكانه، من حيث جاء كل منهما نحو الآخر. لكن ابتسامة مسعود كانت تبدي تصميما ما، تصميم على أن يلغي المسافة هذه المرة، مرة واحدة والى الأبد، لن توجد مسافة أصلا بعد الليلة، كما أدرك ثويني في صباح اليوم التالي عندما شاهده يحمل السلاح مع

آخرين متوجها بمشيته العرجاء عرجا خفيفا نحو مقر الفرقة الحزبية أما هو فقد جلس في بيته مكتفيا بما يتناهى اليه من أخبار الشارع.

يعرف أنها حملته مسؤولية اندفاع مسعود الختامي هذا، ولم تغفر له. ظلت الإدانة ماثلة في عينيها كلما نظرت اليه. لم تقل شيئا، اكتفت بصمت قاطع يخاله ذا هدير سحيق. أصبحت تقضي أغلب أوقاتها نائمة أو منطرحة في الفراش. المرات القليلة التي رآها فيها تتحدث كانت تتحدث مع العجوز، والدتها، بصوت هامس فإذا دفعه الضجر من الإنعزال عن العالم الخارجي والتخوف مما قد تحمله اليه الأحداث الى أن يقف أو يجلس قربهما لعلهما تشركانه في حديثهما صمتت وظلت تنظر الى يديها وتقلبهما متشاغلة عنه فيقوم غاضبا. لكنها عندما وبخها، بعد أسبوعين، على الابتعاد عنه وتجنب محادثته انفجرت في وجهه بكلام أجفله:

- ألم تسأل نفسك لماذا لم يطرق بابك المعارضون الذين سقطت المدينة بأيديهم؟ إنه هو... هو الذي يمنعهم من أن يؤذوك فأنت عندهم والبعثي سواء....

لم يتركها تكمل بل صفعها. ترنحت قليلا وتراجعت ثم استدارت لتدخل الغرفة وتغلق الباب. ظل هو يهدر في مواجهة الباب المغلق:

- لكن بغداد لم تسقط.... لم يبق إلا القليل وعن قريب يدخل الجيش المدينة ويبدأ الحساب...

ما الذي عنته بقولها الأخرق هذا؟ هل أرادت أن تقنعه بأن مسعود شهم وفعل ما يليق بكل شهم يقتدر ويعفو؟ الصحيح الذي لم تجرؤ على الإفصاح عنه هو أنه لولاها هي لما فعل ما إدعت أنه شهامة، إن كان حقا ما تقول فقد حماه مسعود إكراما لها.. لكي لا يصيب ثويني مكروه فتحزن.. هه.. مسعود يتفضل عليه بإنقاذ حياته!. هذه فضيلة حقا ولكن لماذا تأتيه من حيث تؤلمه؟ هو أيضا خسر الكثير ليجنبه الأذى، وهم في الحزب ليسوا من الغباء بحيث لا يثبتوا هذه النقطة ضده. إذا كان هو على مسايرته لهم ولم يصبح مديرا رغم السنوات التي قضاها في الخدمة وتطويره لعمل الآثار فكيف كانت ستكون الحال لو عاند ورفض مثلا أن يقبل التطوع في الجيش الشعبي. لولا شؤم هذه القرابة التي جرت صداقة وخيمة ربما كان سيكون الآن مديرا بدلا من ذلك المدير الجديد الغبي ذي الشاربين الشائكين الكثين والعينين المطيورتين الذي لا يفهم شيئا ذا قيمة في الإدارة أو الآثار.

كانت الريح الباردة لليوم الثالث تحمل ترابا أحمر يضرب الوجوه كالإبر ويدخل تحت الملابس. طلبوه عصر ذلك اليوم فذهب على

مضض بملابسه المدنية لافا رأسه بيشماغ لا يظهر منه سوى عينيه. كان أيضا غير واثق من استقرار الوضع نهائيا ولذلك كان يحاول قدر إمكانه التكتم وإتخاذ الحيطة في تحركاته أمام الجيران وقد ساعده الجو المغبر وخلو الشوارع من المارة على أن يخرج آنذاك دون أن يلحظه أحد. في كرفانات أقيمت خارج المدينة إرتدى ملابس خاكية وإستلم سلاحا بدلا من السلاح الذي سلمه لهم وظن أنه لن يمسكه بيده بعد. ساوره القلق من هذه المهمة المفاجئة ومكانها. أخذوه ومجموعة معه بعد الغروب في شاحنة مغطاة بغطاء مشمع. بعد مسير نصف ساعة أنزلوهم حيث يقف الآن. كانت الحفرة قد تم حفرها وأوقفت الحفارة بحيث تسلط أضواء مصابيحها على صف النساء والرجال الذين أوقفوا معصوبي الأعين وموثقي الأيدي الى الخلف. فكر ((ما الذي يريدونه منا؟ ألا يكفيهم هذا العدد من العسكر؟)). دهش حين طلبوا من مجموعة المسلحين الذين جاء معهم أن يشكلوا صفا ويستعدوا لأطلاق النار على الصف الذي يتأرجح من عصف الريح على حافة الحفرة كأنه معلق بحبال الى عارضة غير مرئية. عندما أتخذ مكانه رآها أمامه. كان شعرها يتطاير في ضوء مصابيح الحفارة اللامع المختلط بغبار الصحراء المتموج، ورأى مسعود الى جوارها يرتدي بنطالا أسود

وسترة بنية. تساءل في نفسه، وهو يرى أن كل شيء جائز، هل تعمدوا في الحزب أن يستدعوه لهذا الواجب ليختبروه أو يجعلوه بالأحرى يشارك في الإعدام؟ هل يعرفون؟

كانت واقفة كما هي دائما، ليست بينه وبين مسعود، ولكن وسط المسافة التي تفصلهما، الى جانب حيث مسافتها هي، حيث الإشعاع والعطر.

أتت بطعام لهما، إنحنت لتضعه على المنضدة. كان مسعود مطرقا، وكان ثويني ينظر اليه مترصدا ((يتصنع عدم الأهتمام، يتظاهر بأن علاقته بها هي وهم من أوهامي، لكني أعرف أنه ممتلئ الآن بعطرها الذي تعطرت به عند مجيئه...)). تضع الطعام بينهما. لم يمد أي منهما يده اليه. كان كل منهما قد إرتكن الى جانبه منها، الى ما يمتلكه، أو يخيل اليه أنه يمتلكه منها. هذا يعني لثويني تعليق أبدي للوجود في إبنة عم، يعني ستبقى بالنسبة اليه صورة جانبية يحول مسعود بينها وبين أن تكون جسما حيا، بينها وبين التحرك والانفصال عن مسعود وأن تكتمل سلطته عليها. أخذ يفضل أن يصفها بالميتة منذئذ وما دامت كذلك فرصاصة في جسد ميت لا تضرها ولا تحمل اليه مزيدا من الضرر.

أريج مداف برقرقات الرغبة، مختلط بارتعاشة شرايين التوق، رائحةٌ زكيةٌ ونورٌ يعرف أنهما أسرا عواطف مسعود. لكن الحقيقة الأهم عندئذ، وفيما بعد، والآن، هي هذا الغبار، هذا الضجيج، أضواء الحفارة هذه، وقعقعات البنادق، والصياح. فكر أن يجد حلا لورطة الوقوع بين عطر أمس مسعود ورصاص اليوم. الرصاص أم العطر؟ الرصاص للعطر؟ يطلق الرصاص كي يخلص العطر من حيرته وقلقه من باقي الطريق، وباقي الأحلام، وباقي الألم، ويتحلل هو بدوره من خوفه من كل هذا، ويبرئ عذابه، وينهي الرواية. لن تتعذب...ستموت قبل وصول الصوت، وسيحيا هو بعد الصوت بضمير مرتاح، يدفن العطر والأفكار ومعها الخوف، الخوف الذي يعبر من مسعود نحوه، خطر معطر تتسلق أغصانه جدران الرغبة غير عابئ بما يجره الالتصاق والارتقاء العنيدان عليه من منغصات، لا بل ما يجرانه عليه من هلاك. إن للخلاص سبلا ومقادير، مسعود يقف الآن معها في مواجهة قدرهما وليس بوسع ثويني عمل شيء بعد الآن سوى أن يجعل النهاية أقصر وأقل عذابا لهما. كان سيفضل أن لا يراها ومسعود في هذا المكان، وأن يكون هو في الأمان، أن يفعل مسعود معها ما يشاء.. يتزوجها أو يأخذها هكذا حتى، لولا أن وجود مسعود في حياته أشبه بورم سرطاني

يأكلها، مهما تناساه فإن نموه يذكره به، في عاطفته، في عقله، ينمو وينمو ويصغر ثويني بنموه حتى يتلاشى ويختفي.

سدد فوهة البندقية لا على التعيين ومع سماعه أمر الإطلاق أحس بخدر مؤلم في السبابة التي تستقر على الزناد. شاهد كيف انتفض رأسها الى الخلف وإنتثر شعرها. ارتفعت مع الصدمة قليلا ثم توارت خلف كومة التراب. لم يتنبه في تلك اللحظة أنه لم يعد يشاهد مسعود. دوى طنين في أذنه. لم يتوقف عن الرمي باتجاه الفراغ حتى سكت رشاشه وبقي هكذا في وضع التسديد متجمدا الى أن سحبته يد من كتفه بعنف ولطمته كلمات ساخرة :

- إرجع ... خلص... أثول! الى أين كنت ترمي؟

هل يكون مسعود قد أصيب أصابة خفيفة وزحف من الحفرة قبل أن يهال على الجثث التراب؟ لا يدري.... ربما لن يعلم أبدا، وربما سيجده يوما أمامه في شارع من شوارع المدينة أو يشاهده في التلفزيون يدلي بشهادته.

دخل في اليوم التالي غرفة الذاتية متأخرا، عند منتصف النهار بعد أن جمع ما تبقى من شجاعته وسلم بأنه في كل الأحوال لن يهرب. الى أين يذهب؟ فليحاول أن يعرف شيئا على الأقل. ابتلع ثويني ريقه عندما

رفع مسؤول الذاتية رأسه لينظر اليه وهو يدخل متوقعا أن يحدجه بنظرة استياء أو احتقار لكنه ابتسم ابتسامة شاحبة في وجهه وقال:

- تأخرت يا ثويني... لقد كانت ليلة غبراء ليلاء قضيتها هنا.

تشجع لأن يسأل الرجل الذي أشار اليه بالجلوس ودفع نحوه كوب الشاي بصمت يدعوه لمشاركته في شربه.

- هل تبين شيء عن المخربين الذين جمعوهم بالأمس في مدرسة القرية الشرقية؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب وهو يغالب السعال ثم أجاب بعد أن شهق الهواء:

- أخذتهم لجنة من بغداد... كلهم ليسوا من هنا جمعوهم من أماكن متفرقة.

هل لثويني أن يطمئن من الآن فصاعدا الى أنها ومسعود أحسنا التصرف ولم يعطيا أسميهما الصحيحين أو يسلما ما يثبت شخصيتيهما؟ الباقي أمره هين، سيدعي، إذا سأل أحد عنها أنها ذهبت لتعيش مع أقربائهم في البصرة أو في الناصرية، أما مسعود فهو مشكلة أهله فليتدبروا أمرهم، ولكن.... هل الاطمئنان بسيط هكذا؟ نظر بطرف عينه الى مسؤول الذاتية الذي كان ينفض عن حضنه فتات الكعكة التي

أكلها. لماذا يخيل اليه أن الرجل يتغافل أو يتجنب النظر اليه منذ سأله؟ هل سيظل ثويني يتخيل أن معلومة ما بخصوص كل ما جرى يتعمدون إخفاءها عنه؟

كانت الصفيحة التي ثقبها العمال من جوانبها وملأوها بكسر الخشب لايزال جوفها يضطرم بالنيران التي أشعلوها على سبيل التلهي قبل انصرافهم. لم يكن الجو شديد البرد وإن بدأ يميل الى ما في السماء من غروب متلفع بأبعاد شتاء متهاون. مع ذلك ارتعش ثويني وهو يقترب من إيحاء البرد في حرارة نار التبست ألسنتها بألوان قوس قزح. يمكنه الآن أن يخير نفسه ويختار، وهو واقف على سبخة صلبة، على بعد أمتار، عن يمينه، حيث الحفرة المفتوحة كفم لم يتسن الوقت له أن يكمل جملته، أراد أن يقول شيئا ولم يمهله الرصاص فظل فاغرا، وهو مغطى بالتراب، وهو مكشوف نحو السماء، فم من رميم لم يكف يوما عن ترديد رميمه، في الليالي الطويلة المتعاقبة، مقمرة أو غير مقمرة، مطيرة أو صافية، عن ترديد حكايات دفنت. ها هو ينكشف، يكمل جملته.

يتقدم ثويني نحو الصفيحة، في جيبه خاتم رخيص، غالي الصدأ، وفي جيبه الآخر هوية أحوال مدنية تثبت الفقدان أكثر مما تثبت الوجود، أو التعريف، لماذا لا يلقي الهوية في النسيان، في التجاهل، حيث يمكن

دائما تدبر وسيلة للسلوى، حيث التذكر يتواطؤ مع التناسي ويجالسه دون آلام أو خصام، يلقيها في نار تحسم التردد، تنفي الخور والعزيمة معا الى فراغ الإلغاء. يمكنه بعدها أن يعيش سعيدا ويبارك نسيانه. يتبادل هو والأيام القادمة تصافيا ولو متأخرا. لكنه واجب، مفروض كالخلاف الذي حال بينه وبين نفسه سنوات. سيقنع بالتناسي الملزم لو أتيح له، لو عرفه بهوية جديدة تلغي ما فات.. سيقنع حتى بالتهوين أذا ما عز غيره. سيرى النار المحصورة في مربع متقلب الأضواء تلتهم الصورة وهي تضن بجمالها على الزمن، على هذا اليوم البعيد عن صاحبتها وعن مماتها خلف رطوبة مالحة ماحية لملامح ابتسمت يوما لألوان الصورة، يشاهد الاسم (سليمة) وهو يتلوى مودعا دنيا التذكر، متنازلا عن حقه لعنف اللهيب الذي يشعل النسيان سرا وعنوة، حيث تنزل قطعة تسود وتصغر شيئا فشيئا الى أرمدة في قعر صفيحة مثقبة، تكون رمادا بين الرماد، فراغا رماديا منسيا في ماضي النار، أو في نار الحاضر التي تستعيد الماضي وتمحوه لأجل راحة ثويني، تمحو ألما ماثلا لا هو ماض في الحقيقة ولا هو حاضر ولا يعرف ما هو. تساءل بماذا يواجه غدا (حوّاسه)؟ هذا الذي قربه منه هو شبه بغيض بماضيه، منكد، متآمر. لماذا لا يحتفظ ثويني بما في يده ليدحض الضغينة المتربصة

بأيام يريدها "سليمة"، ممهدة الراحة، يريدها وجاهة تلفت الأنظار. مد يده حيث تستقر هوية كان قد استخرجها من قبل لسليمة بنفسه وكبسها عندما كانت لاتزال في السادسة عشرة. فرحت بصورتها الملونة الجديدة وبنسخ الصورة الأخرى التي احتفظت بواحدة منها في ألبومها الصغير ووزعتها على صديقاتها و... أعطت مسعود واحدة دون شك. تحسس الهوية بين أطراف أنامله وراحة يده وبين النعومة الموغلة في الصمت، وفي الصلابة المائلة الى التكسر، المتيبسة ملوحةً. تحركت ذرات تراب متبلورة تحت أطراف أنامله، وطقطقت مكتومة. غدا سيعيد كتابة التأريخ. لكن تأريخه يمكن أن يمحو كل تأريخ إلا تأريخ مسعود مادامت جثته لا توجد بين الجثث، غيابها حضور مسعود الذي لا يمكن أن يكون لتأريخه شبيه أو بديل. يمكن أن يرتب ثويني أيامه غير أن ظهور مسعود قد يطيح بها ويعيد التعاسة الى الضوء، سينبش مسعود جثة ماضي ثويني. لكن هذا مرهون بالاحتمالات فليقنع ثويني بما في يده... هوية متيبسة وخاتم صدئ، مفتاحان لتأريخ جديد. إذا كان حواس لا ينفك يتباكى على مفقودين ولا يشبع من استدرار التعويضات والإعانات ولا يكتفي من تسجيل الأسماء في سجلات الضحايا واستصدار الهويات التي يملأ بها محفظته ويقبض بها رواتب

الإعانة مستصحبا كل مرة امرأة مختلفة الى المجالس البلدية والمنظمات فإنه، ثويني، سيكون له غدا شهيد حقيقي، موجود، ليس سرابا، ليس تفصيلا في قصة حزينة للاستعطاف، سيفخر غدا، وبدموع حارة، أمام الأمريكي الأحيمر الأنيمش، أمام حواس، سيسلب هو هذه المرة من حواس ملامحه الى الأبد ويتركه ممتقعا خاليا من الامتياز. سيكون إبن عم الشهيدة...

ولكن ألن يكون هذا تذكيرا دائما له بما جرى؟ فماذا يفيده أن تسجل سليمة شهيدة ويظل هو في عذابات التذكر، يبقى لديه دائما ما يذكّره. من الأفضل له أن يختار النسيان، فيرفعون غدا عظاما لا تمت له بصلة ولا تعود لأحد.

مد ثويني يديه فوق النار ملقيا فيها الهوية والخاتم . نظر الى ما وراء سدة النهر، لاحت له العتمة القادمة من بعيد، على الأرض، شيئا فشيئا، أبراج الهمرات وهي تتعرج خلف النهر عائدة نحوه جالبة معها شاحنة فيها حراس. لاحظ فوق الهمرات البهاء اللازوردي الذي تخلفه شمس غاربة، انتبه الى أنه، منذ سنين، لم يشعر بجمال السماء، لم ينظر اليها نظرة تكفي لأن تبعث النشوة في نفسه والرضا منذ زمن بعيد.

٢٠٠٧

ممشى الكالبتوس

قالت:

-إشرب أنت الشاي. أنا أكلت من البقلاوة التي أعطتنا إياها إبنتنا بالأمس....

ضحكت وأضافت:

-.... لا أستطيع منع نفسي من الأكلات الحلوة الدهينة.

وضعت قدح الشاي أمامه بينما رفع بصره اليها مبتسما إبتسامة تعرف مغزاها. قالت في سرها وهي تتجنب النظر اليه "سيبدأ هذا الشيخ مجددا"، ومدت يدها اليسرى الى خصلة من شعرها المصبوغ بالكستنائي تدلت على جبينها لتدفعها جانبا بحركة مرتبكة. أرادت سحب يدها اليمنى بسرعة ولكنه أمسك بها، أطبق على الرسغ بالسبابة والإبهام وثبتها على المنضدة وضغط بلطف عليها كاتما إرتجافها في باطن يده التى غطتها تماما.

-لا يستطيع الحلو منع نفسه من أكل الحلو.

- يا حلو يمعود... إتركني لدي غسل صحون..

حركت يدها بتوسل فأفلتها. إنتابها شعور الفتاة المراهقة التي يتبعها فتاها عن قرب ويوشك في أية لحظة أن يحصرها في ركن خال من الناس فتستسلم لقبلاته. نظر هو اليها وهي واقفة عند الحوض، الى جسدها الذي لا يزال محتفظا باستقامته وهي على مشارف الخمسين، الى تقاطيعه الممتلئة بأناقة، رغم ترهل عند الحوض، الى ظهرها الشبيه بظهر تمثال لإمرأة رومانية. هذه المرأة لا زال جمالها يقاوم. لطالما كان محسودا عليها، وكم من مرة سمع في تلك السنين الخوالي من صديق وهما يسيران معا عبارة دهشة وإعجاب:

-أنظر... هذه الفتاة التي يتمنى المرء أن تكون صديقته!

ويلتفت فيراها، ترتدي ثوبا من ثيابها زاهية الألوان المفصلة على جسدها "كالمحبس"، منسابا مع ساقيها الى الكاحلين، وتفلت قصدا عباءتها من يديها لتترك الهواء يفتحها ويرفعها خلفها فلا يعود شيء يخفي بهاءها عن الأعين التي تحف بها على الرصيف بين البيوت وشجيرات الظل، كان يعرف أنها تفعل هذا لأنها لمحته يسير مع صديق فرغبت في إثارته، ويختال الجسد المفتول على الشهوة للحياة وهي تطرق في سيرها وتبتسم إبتسامة ماكرة، ومع أنه يشعر أول مرة بالإنتشاء لما

يراه من الذهول على ملامح صديقه وعينيه المحدقتين فإنه سرعان ما تنتابه الغيرة والضيق من نظرته فيقول بسرعة ليدفعه الى إبعاد نظره :

-هي حبيبتي....

ويضيف ليضفي على إعلانه قوة العرف:

-.... وخطيبتي... أهلنا إتفقوا على ذلك.

لم يكن سهلا على أي من أصدقائه أن يصدقه، كانت بنظرهم أجمل من أن تكون لأحد، أجمل من أن يمتلكها هو أو غيره، فيعانقها أو يلمسها حتى، وكان هو فخورا بإعجابهم بجمالها وشكهم بأنها له دون غيره، مسرورا ومستاءا من نظراتهم على حد سواء، ولذلك لم يأل جهدا في حث أهله على جعل الخطوبة رسمية ليستطيع الخروج معها أمام أصدقائه علنا بعد أن كانا يلتقيان حيث يلتقي العشاق بعيدا عن أعين أهل الحي، في متنزه إذا إنزويا فيه لا يعود لسواهما وجود في الكون، وإذا تمشيا في الممرات المشجرة طار به إنتشاء مختلف غير إنتشاء الضم والتقبيل وإطلاق أصابع الوجد الساخنة التواقة للإكتشاف في كائنين متكورين لا يكفان عن النبض والتنهد، إنتشاء لا يخالطه إستياء أو غيرة، بل سرور منبسط مرحب بنظرات الآخرين التي يعدها تهنئة له

على حظه الحسن وذوقه في الإختيار، وربما كانت من بعض الشبان تهنئة على مهارة في الإصطياد. هذا كله كان يبهجه، ويجعله يرى نفسه فريدا.

هكذا راح في تأملاته الملتذة، فيما أخذت هي تردد في سرها وهي تقف عند حوض غسل الصحون " لا يستطيع الحلو..."، وقبل أن تكمل تذكرت اللوحة وفكرت أن الوقت قد حان لتخرجها من خزانة ملابسها حيث وضعتها منذ اليوم الذي اشترتها فيه، وليس من وقت أفضل من هذا وهو في مرحه وانبساطه، فلتنبذ ترددها جانبا وتنفذ ما عزمت عليه.

رأت هذه اللوحة معروضة في محل لبيع القرطاسية. كانت موضوعة بين لوحتين أخريين أصغر منها على مسند أمام الواجهة. لوحة أكبر قليلا من دفتر الرسم المدرسي، كأن ما فيها منقول عن الصورة الفوتوغرافية التي كانت عندهما ومزقها (مجيب) في لحظة تميل الى تصورها لحظة ضعف. الفرق الوحيد بين اللوحة والصورة هو أنها ومجيبا غير موجودين في اللوحة. الممشى نفسه بأحجاره الرصاصية وأشجار الكالبتوس متدلية الأغصان من الجانبين والتي تنبئ العشاق بتشابك أغصانها بأن لهم خلفها خلوات ظليلة بعيدا عن أعين الفضوليين، حتى الفرجات ما بين الأغصان تكاد تكون هي نفسها.

لولا أنها متأكدة من أن الصورة لم تكن يوما عند أحد من خارج العائلة، ومتأكدة من أنها لم تخرج من بين دفتي الألبوم، لقالت أن رساما وضعها أمامه ونقلها الى خطوط زيتية قوية الألوان دون أن يرسمهما فيها. بدا لها أن الرسام كرر التلوين عدة مرات بحيث كانت تفاصيل الألوان بارزة تغري الناظر بلمسها.

لكن مجيبا لم يمزق الصورة لأنها لم تعد تتلاءم مع الأخلاق السائدة اليوم، لأنها تظهر فيها ترتدي قميصا ضيقا وتنورة تصل الى ما دون الركبتين بقليل مثلا، بل مزقها لسبب آخر، هي تعرفه، ولكنه لم يذكره بل تحجج بحجة أخرى:

- شكلي فيها غير لائق.

نظرت اليه مليا برغم ما إعتراها من إرتباك لتصرفه المفاجئ. كانت قد جلست على الطرف الآخر من الأريكة حين وجدته يتصفح ألبوم الصور وراقبته وهو يضحك لصورة التقطها في العيد الماضي لأطفال شقيقته، ثم وهو يتأمل كثيرا في صورة والدته المتوفاة، ثم رأته يبتسم لصورته مع أحد الأصدقاء في سفرة لصدور ديالى أيام الدراسة الثانوية، وفجأة تعكرت ملامحه.. حولت بصرها عنه الى ألبوم الصور وعرفت سبب هذا التغير المفاجئ. رأت كيف ضاقت حدقتا عينيه كمن يفكر بما

يتوجب عليه فعله، وتحركت أصابعه، أمسك الصورة وسحبها من الحافظة الشفافة، أغلق الألبوم بحزم ووضعه على الأريكة بينه وبينها. تصرف كأنها غير موجودة، حتى عندما قال " شكلي فيها غير لائق" قالها كمن يحدث نفسه، وشرع بتمزيقها، أمعن في التمزيق بحيث إستحالت الصورة الى مزق صغيرة. هذه الصورة ضمتها ألبومات مختلفة الأغلفة والموديلات ، مع صور أخرى، خلال ما يقرب من الثلاثين عاما، ومن الصعب تصور لماذا يصبر المرء سنوات طويلة على شيء ينطوي على ذكرى مؤلمة ويحفظه كما يحفظ أي تذكار آخر وفجأة يثور ويعدمه، من الصعب توقع اللحظة التي ينفتح فيها صدع ما طال تحمله وينفلت بعض ما كان محصورا خلفه من ألم مدمر تدميرا بطيئا فيصيب شيئا ما.

ارتجفت شفتاها وهي تنظر بشرود الى اللوحة، عصفت بها ذات المشاعر التي تعصف بها كلما خطرت على بالها أحداث ذلك اليوم والعذابات التي تلتها ثم استدارت بعصبية لتواصل سيرها نحو سوق الخضار، لكن محاولاتها لشغل بالها بشيء آخر غير ما أعادته اللوحة الى ذاكرتها باءت بالفشل. ثقلت خطواتها وهي تسير بين بسطات بائعي الخضار في السوق منخفض السقف حتى توقفت عند أحدهم. رحب

بها وامتدح لها الطماطم التي كومها على منضدةٍ فرشت بمشمع مطري وهي لا تنظر اليه بل وقفت جامدة توجه نظرها أمامها كأنها رأت في الممر الذي يروح ويجيء فيه المتسوقون ما جعلها تحجم عن التقدم. سكت البائع بعد محاولتين أو ثلاث للفت إنتباهها وأخذ ينظر اليها نظرة المرتاب.

استدارت وعادت أدراجها خارجة من السوق. لكنها هذه المرة لم تكن نهبا لمشاعر الألم والإحساس بالعار كلما مثلت أمامها ذكرى ذلك اليوم، ذكرى عيني مجيب الطافحتين بالمهانة والمرارة وهو ينظر الى صدرها، الى قميصها الذي نسيت، عندما عادت اليه، أن تعدله وتزرر أعلاه لإرتباكها وذهولها. ولكم رأت منه تلك النظرة فيما بعد، ترتسم أمامها كلما فتحت بعنفٍ بابَ الذكرى جفوةٌ أو كلامٌ عابر ، أو حتى لقطة من فيلم يعرضه التلفزيون، فيسود صمت واجم فيما عيونهما تلتمع بحرج وهما يراقبان رجلا ذا ملامح ملتهبة يمد يديه المرتجفتين شبقا نحو أزرار قميص فتاة مقيدة، ويفتحها زرا زرا، ثم ينزعه الى الخلف بحركة مثيرة. قد يقوم مجيب بإطفاء التلفزيون بسرعة أو يحوله على قناة أخرى وهو يقول متذمرا:

-ما هذه السخافات؟ هل مغزى القصة بحاجة الى هذه اللقطة؟...

وربما يروح يشرح لأفراد العائلة كيف أن القصة واضحة ولم تكن تستوجب هذا المشهد المخل، وإنما يضعها المخرجون في الفيلم لمزيد من الإثارة وجذب الناس... الشباب خصوصا. كان يتكلم بحماس فيما الإبن والبنت يصغيان الى أبيهما وهما يعزوان هبّته المفاجئة وهذا الشرح غير المتوقع في الإخراج السينمائي الى ميل الأب الى الحشمة وتجنيب الأبناء رؤية مشاهد كهذا المشهد . لكنها تعرف السبب.

سارت خارجة من السوق بخطوات ثابتة خفيفة هي غير الخطوات الثقيلة التي دخلته بها. أسرعت الخطى عائدة الى محل القرطاسية وهي تأمل أن تجد اللوحة في مكانها ولم يشترها أحد.

سألت الشاب النحيف المشغول في الداخل بترتيب المعروضات على الرفوف:

-هل رسام هذه اللوحة من منطقتنا؟

خرج من المحل ليرى أية لوحة أعجبتها. نظر الى اللوحة قليلا وأجاب:

-هذه اللوحات كلها إشتريتها من الكرادة في صفقة واحدة.....

ثم أضاف بعد أن لاحظ إهتمامها غير العادي باللوحة عازما على أن لا يفوت فرصة قد لا تتكرر:

- أبيع لك اللوحات الثلاث كلها بالسعر الذي إشتريتها به...

ردت دون أن تحول نظرها عن اللوحة:

-أريد الوسطى فقط.

دفعت له السعر الذي طلبه، وأخذت اللوحة التي وضعها لها في كيس ورقي أسمر، وضعتها لصق جسدها تحت العباءة وتوجهت نحو البيت ناسية ما كانت تريد شراؤه من السوق.

رجعت بذاكرتها الى ذلك اليوم المشؤوم. كانت ضفة النهر غير بعيدة وكانا سيصلان الى خلوتهما لولا أن إعترض طريقهما رجل الأمن. برغم أنها احتاطت للأمر كما أخبرها مجيب فوضعت خاتما من الفضة وفعل هو المثل ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الرجل ولم يقبل بادعائهما أنهما مخطوبان. إنضم اليه رجلان آخران ينظران مثله الى الشابين بتطلع متحفز.

-ما جاء بكما الى هنا؟

-نتنزه... هل التنزه ممنوع؟

- ألا تعلمان أن التنزه هنا ممنوع؟

-لا....

-سنأخذكما الى المركز وتبقيان في الحجز الى أن يأتي أحد من عائلتيكما.

-لم نفعل شيئا.

-أخرج هويتك!.. ألست في سن التجنيد؟

-أنا طالب في كلية التربية.

- التربية!.... يعني يعلمونكم التربية؟

وانهالت عليه التعليقات المهينة. طلب منه رجل الأمن دفتر الخدمة العسكرية أو هوية الكلية. كانت هي تمسك بيدها اليمنى زنده الأيسر وتضغط عليه بين الحين والآخر تحثه على الإستجابة للأمر بعد أن رأته ممتنعا، وتصبره خشية أن يرد دفاعا عن كرامته فينهالوا عليه بالضرب ويأخذوهما للتوقيف. إغتنمت فرصة فابتسمت لأكثرهم تشددا إبتسامة متوددة راجية فقال وهو يرد بإبتسامة تشع من عينيه أكثر مما ترتسم على شفتيه:

-لخاطر الشباب الحلوين...

لم يكن المقر أكثر من غرفة خشبية فيها بعض الأثاث المكتبي ويقع بجوار سياج القصر المبني على مرتفع من الأرض مطل على النهر وعلى المتنزه. أدخلها رجل الأمن على المسؤول الذي يرتدي بدلة بيج فاتحة

اللون صيفية من قطعتين من نوع السفاري. شاب ناعم الملامح حتى ليبدو بعمر مجيب أو أكبر منه بقليل. عرفت أنه الضابط من مخاطبة الرجل الذي إقتادها اليه بكلمة "سيدي". نظر اليها بإعجاب وبدا عليه أنه لم يتفاجأ كثيرا وأنه قد إعتاد مثل هذه الحالة ثم إلتفت نحو رجل الأمن متسائلا.. أخبره الرجل بأنهم وجدوها مع شاب يتسكعان في المنطقة المحظورة، وأكد بنبرته على عبارة "المنطقة المحظورة" كأنه يوحي للمسؤول بالصيغة التي يتوجب أن تكون عليها المحاسبة كما يفعل عادة المراتب الأقل رتبة والأكثر خبرة مع مسؤوليهم حديثي العهد بالمنصب.

لم تدر كم بقيت في داخل الغرفة الخشبية مع الضابط لوحدهما، كانت شبه دائخة وتجيب على أسئلته عن منطقة سكنها وأهلها وعمل أبيها وأخيها دون تردد ولكن بإرادة مسلوبة، أخيرا سألها:

-قولي الصدق...هل هو خطيبك رسميا؟

خرج الصوت من فمها بالإيجاب محشرجا، باستسلام وذل شعر بهما الضابط، وأدرك أنها لن يكون لها رد فعل رافض، ربما تمنعت قليلا، إذا ما مد يده الى صدرها:

-ليس من الضروري أن ترتدي المخطوبة قميصا ضيقا هكذا....

ولمست أصابعه زر القميص وجذبه بلطف:

-ضيق بحيث لا يمكن تزريره هنا....

وأدخل يده من الفتحة. أحست بالأرض تميد بها ببطء، مرة يمينا ومرة شمالا، وتمالكت نفسها لدقيقة أو نحو ذلك قبل أن تلفظ بصوت واهن من بين أسنانها:

-الله يخليك....

فجأة توقف وأخرج يده. قال متصنعا الأريحية والمرح:

- يبدو أنكما فعلا مخطوبان.

لا تدري لماذا تركها، ربما لم يكن لديه الوقت الكافي ليتمادى، وربما لم يكن المكان مناسبا، ولو فعل ما كانت لتستطيع أن تقاوم أو تصرخ ومجيب في الخارج على مبعدة أمتار. حين خطا خطوة الى الخلف مفسحا المجال لها للخروج لم تستطع رأسا أن تخطو باتجاه الباب الذي ما أن إستطاعت الوصول اليه وفتحته وجدت رجل الأمن الذي جاء بها واقفا خلفه على مسافة تقل عن المتر.

حتى بعد أن إتفقت هي ومجيب ذلك اليوم ضمنا، وهما يعودان بصمت، على نسيان ما جرى، أو تجاهله على الأقل، وأن لا يكون عائقا أمام زواجهما، لطالما رأت تلك النظرة بين الحين والحين، وإن تباعدت

الأحيان، خلال السنوات الثلاثين التي مرت عليهما وهما تحت سقف واحد. نظرة تضج بتوسل قاتل: «دخيلكِ... لا تقولي لي أنهم....»، ورأت إنكساره حين لم يلحظ عليها ما يوحي بتكذيب ظنه. لم يسألها بعد ذلك عن تفاصيل ما حدث أبدا، ولم يسألها حتى عن مجرد تكذيبه أو تأكيده بالقول الصريح، لكنه إنطبع الى الأبد في روحيهما إنطباع وسم العبودية، وسعيا طوال حياتهما المشتركة ليس الى إنكاره بل الى مراوغته، وخداع النفس بالتهوين من شأنه، ولم يكن عزوفه، حتى في أرق اللحظات حميمية أو في أشد الحالات خصاما، عن سؤالها عن تلك التفاصيل إلا لكي تبقى التفاصيل في حيز الظن، أقل إيلاما وأقرب للنسيان، بل أقرب لأن يرى في جهله بها ما يجعل الحياة محتملة إذا عز النسيان، ولم يتحدثا عنها صراحة.

غسلت يديها ثم جففتهما بالمنشفة وتوجهت الى خزانة الملابس. أخرجت اللوحة من الكيس وتأملتها قليلا وهي تفكر أحقا أنها إختارت اللحظة المناسبة؟ هي تعرف جيدا أنه لا بد من نهاية ما، ومن الأفضل في هذه الحالة أن تكون النهاية بإرادتها. رأت في هذه الصدفة الغريبة، إشارة ملهمة، كإنما من السماء، حين شاهدت اللوحات في الحي الذي لم تر طوال حياتها لوحات تعرض فيه، فكيف بها إذا كانت

إحدى اللوحات نسخة زيتية من خلفية صورة إلتقطها لهما مصور متجول في ذلك العصر الذي تجنبا فيه الأماكن التي يتوقعان أن يصادفا فيها مفرزة شرطة الآداب لكي يصلا بسلام الى المكان المنعزل على شاطئ دجلة دون أن يمزق أفراد المفرزة بنطال مجيب بالمقص ويلطخوا تنورتها وساقيها بالأصباغ، لكنهما وقعا في قبضة رجال الحراسة الأمنية.

قررت أن تشتري اللوحة وتعلقها في البيت، تكون أمام عينيها دائما، قررت أن تنتصر على ضعفها، وتواجه الأمر بشجاعة فتكون هذه اللوحة هي الإعلان المجسم الملموس لهذه المواجهة، لا يمكن أن يأتي اليوم الذي تموت فيه وهي لا تزال تشعر بالعار الذي يجعلها تطرق غير قادرة على النظر في عيني مجيب، أو تبكي حين تتذكر وهي جالسة لوحدها. لا بد لمجيب هو أيضا أن يستعيد السعادة التي كانا يأملان أن يعيشاها ذلك اليوم وصارت الصورة رمزا لفقدانها، قررت أن تكون اللوحة رمزا لإستعادتها، أو على الأقل أن تكون إصرارا على التمسك بالحق في سعادةٍ مصادرة.

بعد أن تزوجت إبنتهما وتزوج إبنهما وإنتقل وزوجته للسكن في بيت صغير غير بعيد، أصبحا وحيدين يعيشان حياة فراغ لم يألفاه، وهذا ما بدأت تخشاه، الفراغ كالأرض غير المزروعة تغزوها النباتات الضارة

شيئا فشيئا، الذكريات غير السارة تجد في الفراغ ساحة واسعة تنمو فيها وتكبر يزيدها سطوةً الإستغراقُ فيها فيكون ما يؤلم منها أشد إيلاما وأكثر مدعاة للصراخ بصوت عال. قررت أن لا تدع هذا يحصل. علقت اللوحة ، بمستوى رأسها، على الجدار الذي أمامه مباشرة، بالمسمار الذي تعلق به مفاتيح البيت ، واستدارت لتواجهه. رأت كيف جمدت عيناه وهو ينظر الى اللوحة. لم يقل شيئا، لم يستنكر، ولم ينتفض واقفا ليوبخها وينتزع اللوحة ويضربها بالأرض ويدوس عليها. بدا لها وكأنه حائر متفاجئ لا يدري ما يقول، وخشيت أن يكون رد فعله غير ما تأمل، فألقت بنفسها عند قدميه ووضعت يديها على فخذيه مقربة وجهها من وجهه بحيث تحجب عنه اللوحة ونظرت اليه متضرعة لتقول:

-مجيب... طوال ثلاثين عاما كنت أشعر بك. أشعر بألمك. لكن من منا كان السبب في حدوث شيء إن كان قد حدث فعلا؟

سكتت لحظات لترى إن كانت قد أثرت فيه بعض التأثير بكلماتها هذه، ولكنه بقي متخشب الجسم جامد النظرة كأنه لم يشعر بها تقترب منه وتركع أمامه ولم يسمعها تكلمه بصوت أقرب الى الهمس، صوت وضعت فيه كل ما يمكن أن تضعه المرأة من حب ومن خشية على عالمها

الحبيب أن يتقوض. لقد نبذت كل الخيارات والبدائل لعالم قلبها هذا وهي شابة عندما كانت البدائل والخيارات متاحة، وحري بها أن تكون الآن أكثر تمسكا به وقد وصلا الى سن كل منهما بحاجة فيه الى الآخر وعطفه. واصلت وقد تلألأت عيناها بدمع محبوس:

-لم أغب عنكَ سوى دقائق... لم يحدث شيء بيني وبينهم. كل ما في الأمر أنهم أخذوني الى ضابطهم ليتأكد من صدق كلامنا، إستفسار بسيط كما قالوا، لأنهم يرون أنك قد تكذب عليهم بينما أنا فتاة يستطيعون بسهولة معرفة الحقيقة مني، سألني فقط قولي الصدق هل أنت خطيبته حقا فقلت له أجل، وكان لطيفا جدا معي وقال لهم دعوها تذهب. لم يحدث شيء... سمحت له أن يرضي غروره قليلا، ولو لم أفعل ذلك لضربوكَ وأخذونا الى المركز، وكانت ستكون فضيحة يتحدث بها الناس طويلا.

سكتت لتلتقط أنفاسها، وراقبت الوجه، الذي كان منذ لحظة أسمرا محمرا من الإنفعال المكبوت، ترتخي قسماته. نظر اليها عندما قالت " سمحت له أن يرضي غروره قليلا" وحول نظره عنها جانبا دون أن يحرك رأسه، مغمضا عينيه. أدركت أنها تتعب نفسها عبثا فالمشكلة لم تعد هي ما حدث في ذلك اليوم بل في الأثر الذي تركه ما حدث في

نفس مجيب والذي صار، بتجنب مواجهته، يزداد وطأة وعمقا بمرور الزمن، وصارت الآلام المكبوتة نسيج هذا الندب، أي مس لها يطلق ألما لا يطاق.

قامت ولبست عباءتها وخطت نحو الباب وهي تقول:

-سأذهب عند إبنتي... سأبات عندها، زوجها اليوم في الخفارة. فكر أنت يا مجيب. خذ راحتك، لديك الليل بطوله لتفكر.

في أوقات الحزن والوحدة يحل الليل سريعا. تجول مجيب في البيت بخطوات أثقلها التفكير، لم يضيء المصابيح مكتفيا بما تلقيه مصابيح الشارع الى داخل البيت الواقع على مفترق شارعين، وتطل عليهما مباشرة نافذتا غرفتيه المظللتان بورق التظليل الشفاف المشجر. في تلك الساعة الأولى من الليل تنشط الحركة في الشارع المفضي في نهايته الى الشارع التجاري حيث تمتد على طوله المولات والصيدليات والمكاتب. أناس يروحون وأناس يجيئون، وأصوات أطفال عابرين. لم يشعر مجيب برغبة في أن يخرج ويروح عن نفسه بمشاهدة الناس، وربما يدخل بينهم ويتوجه الى حيث يتوجهون، يذهب الى مقهى مثلا أو مطعم يحتل حديقة واسعة. لكنه كان حائرا يبحث له عن مكان مناسب، لا يضيق به، في هذا البيت، وأخيرا وجد نفسه من جديد أمام اللوحة، واقفا على

مبعدة خطوتين. تفاصيل اللوحة غائمة غير أن الممشى الرصاصي كان واضحا يلمع وسط الخضرة الداكنة. إعتصر الحزن قلبه وود لو تكون هي أمامه الآن ليتحدث اليها أخيرا:

" لم تمنحيني الفرصة لأستجمع قواي، لأكون جريئا وأقول لك... لقد رأيتُ نظرتكِ ساعتها وأنت تسيرين مبتعدة مع أحدهم فيما أمروني أن أبقى حيث أنا ، رأيت نظرتكِ إلي... كنتِ كأنك تقولين لي " هل إرتحت الآن؟ ألم أقل لك دعنا لا نذهب الى المسبح بل الى الزوراء؟" بعد أن غبت عن نظري خلف جدار بناية مفرزة الحراس الأمنيين لم أطق البقاء واقفا أمام الرجلين وهما ينظران إلي أو يتبادلان النظر مبتسمين، تلفت فلم أر أناسا قريبين لأبدأ الكلام بصوت عال وأجعلهم يتجمعون. لم أكن واثقا من أن ما أردت فعله يفيدني في شيء. كنت مستعدا لأن أخاطر. شعرت بالذل ينساب في صدري كسيل بطيء موجع الحرقة ولم يكن بيدي سوى أن أدير ظهري لهما، لم يمنعاني، وتمشيت الى حيث وقع إختيارنا، أنا وأنت، قبل قليل، قبل أن يعترضوا مسراتنا، للجلوس خلف أجمة من الأشجار، وجلست هناك على مسطبة خشبية في مواجهة نهر دجلة، لكنني لم أكن أنظر الى نهر دجلة، لم تكن تهمني دجلة ساعتها، ولا ماءها الموار بطينه الحري الذي

جئنا نمزج ببرد نسيمه همساتنا وقبلاتنا في تلك الظهيرة. جلست بانتظارك... كل ما في الدنيا كان هو انتظارك، إنتظار أن أسمع خطواتك تقترب قبل أن تعصف بي الظنون وتقتادني الى حيث لا أحب. الآن أنا أدرك أني قد أسأت اليك بقدر ما أساءوا اليك، وإن كانوا هم أو أحدهم قد إعتدى عليك بأي شكل، فإني أمضيت السنوات الثلاثين أغتصبك وأعتدي عليك كل يوم، كل مرة يضمنا فيها السرير، لكم أنا أناني وحقير! أجل طمعت في الإستحواذ على جمالك، في أن أحتفظ به برغم كل شيء، وأتجاهل ما جرى رغم أني أعرف جيدا أني لن أنسى. كانت المروءة تقتضي أن أجد بعد فترة سبيلا للفراق يحفظ كرامتك ويجعلني بنظر نفسي رجلا منصفا، أجل كان يجب أن أعاقب نفسي بفراقك، فلم أكن أستحقك....."

إستدار وتوجه الى خزانة خشبية فتحها وأخرج علبتين بداخلهما زجاجتا عطر، رجالي ونسائي، إشتراهما اليوم وأخفاهما في الخزانة تحت كتب ودفاتر ناويا أن يعطيها الليلة زجاجة العطر الخاصة بها. أخرج الزجاجتين وقلبهما بين يديه. وضع زجاجته على الخزانة وأخذ زجاجتها. جلس على كرسي عند نافذة تطل على الشارع الذي سلكته نحو إبنتها، في العتمة التي يلقيها عليه ورق التظليل، وفتح النافذة

قليلا. نظر الى الزجاجة التي أسبغ عليها العطر لونه الذي بلون عصير الليمون، الى المرأة الفارعة تنثر زهورا على جانبها، قربها من أنفه وشمها وهو يتخيل العطر ينفذ اليه عبر زجاجها الذي يبرز صورة المرأة. أبعدها وقبض على الغطاء، فتحه، شم العطر الذي بدأ ينتشر ويلف حواسه بنسيجه الحريري الأثيري اللامرئي. ضغط على البخاخ وترك العطر يندفع نحو صدره ورقبته، أغمض عينيه مستشعرا لذة نفاذة تنبث في نفسه وجسده، ظل هكذا ضاغطا لبرهة على البخاخ ثم توقف تاركا يده تستقر مع الزجاجة في حضنه... آه، هذا القلب لم يعد يحتمل. وضع الزجاجة على حافة النافذة دون أن يفتح عينيه. ستعود.... هو يعلم أنها ستعود. لن تتركه الليلة وحده. ستنظر اليه ضاحكة من فتحة النافذة، تقول له "أنا أراك"، وسيفتح هو عينيه فيراها.... أنظر... هذه الفتاة التي يتمنى المرء أن تكون صديقته! ترتدي ثوبا من ثيابها زاهية الألوان المفصلة على جسدها "كالمحبس"، منسابا مع ساقيها الى الكاحلين، أجمل من أن يمتلكها هو أو غيره، فيعانقها أو يلمسها حتى..... "هي حبيبتي... وخطيبتي"، وتفلت قصدا عباءتها من يديها لتترك الهواء يفتحها ويرفعها خلفها فلا يعود شيء يخفي بهاءها عن

الأعين التي تحف بها على الرصيف الضاج بالأنوار بين البيوت وشجيرات الظل، فتضحك هي.... تضحك.

تموز ٢٠١٧

حدث ذات صباح في بغداد

لم تغمض له عين طوال الليل ، ولم ينهض من الكرسي الحديدي، وكل ما كان يفعله هو التحرك في جلسته قليلا وتغيير اتجاهها، أو وضع ذراعيه على المنضدة الخشبية وإسناد رأسه عليهما. لم يفتح أحد الباب منذ أن غادر آخرهم بالأمس ليلا. خشي أن يفاجئه أحدهم وهو يتمشى في الغرفة فيكون قد أعطاهم الحجة لتوجيه الصفعات والركلات اليه من جديد خصوصا أنهم ولا شك مستفزو الأعصاب جميعا، فالقصف ليلتئذ أشد من الليالي السابقة وكان يشاهد من الشباكين المستطيلين في أعلى جدار الغرفةِ مطفأةِ المصابيحِ سوادَ الظلمة يتحول الى قرمزي وامض ثم يعقبه صوت الإنفجار الذي يخيل اليه أحيانا أن رجعه يدك الأرض تحت قدميه دكا حتى لقد أصابه الفزع مرات عندما كان يسمع بين الحين والآخر إنفجارا قويا الى درجة يظن معها أن القنبلة سقطت على بناية دائرة الأمن حيث يحتجزونه.

خيمت على حواسه رائحة كريهة كأنها تنبعث من مجمع قريب للمياه الثقيلة أو بالوعة كبيرة مكشوفة، وهو في وجومه، متصبب العرق، تتخبط عيناه على الجدران التي يخشى أن تنهار عليه في أية لحظة. صلته

الوحيدة بالخارج هو ذلك النباح الذي يتحول الى عواء طويل مرعوب يطلقه كلب من مكان خلف سياج الدائرة العالي وتجاوبه كالأصداء المتباعدة كلاب مرعوبة في قيامة ليلية تتساقط حمما من سماء لازوردية. لا يسمع صوت بشر، لا غير هذا المولول العاوي.

الأصوات التي سمعها بعد أن أغلقوا الباب، تارة أقدام تروح وتجيء في الممر، وأحيانا كلمات يتبادلها شخصان، ومرة طقطقات ووشوشة جهاز، إختفت تدريجيا ولم يعد يسمع شيئا. نظر الى الباب، باب خشبي وليس حديديا كباب الغرفة الصغيرة التي حبسوه فيها أياما طويلة لم يعد يعرف عددها ولم يشاهد فيها معتقلا غيره، ينام فيها على فراش مكون من بطانيتين، بطانية عتيقة يفترشها وبطانية أخرى أفضل منها حالا يتغطى بها ويتوسد وسادة خشنة الملمس. تركوه فيها لا يرى منهم أحدا إلا حين يأتون له بطعام من بقايا ما يأكلون أو يقدمون له شطيرة فلافل، أو حين يخرجونه كل يوم صباحا ليقضي حاجته وعليه أن يضبط هذه المهمة البايولوجية وفق توقيتهم.

إستدعوه مرات لتسجيل المعلومات الشخصية دون أن يبلغوه بسبب إعتقاله. هي الأسئلة نفسها كل مرة مع تغيير بسيط أو سؤال إضافي عن إسم صديق مقرب أو نوع الكتب التي يحب قراءتها، قال

للضابط أنه لا يوجد عنده صديق مقرب ولا يحب نوعا محددا من الكتب فنظر اليه الضابط وقد إحمر وجهه اليقطيني غضبا وقال:

-هل أنت غبي أم تتغابى؟ لا صديق مقرب ولا نوع محدد من الكتب! أي جواب هذا؟ حين أستدعيك مرة أخرى أريد قائمتين كاملتين بأسماء الأصدقاء وعناوين الكتب.

وأمر بإعادته الى الغرفة.

كان يراوده طوال الوقت إحساس غريب بأن تعاملهم مع قضيته ليس بالإهتمام المعروف في قضايا أمنية يفترض أن قضيته تندرج ضمنها. رجح أن الظرف، الحرب وما تفرضه من أولويات طارئة، هو السبب.. لا وقت لديهم يضيعونه على شخص مثله وقضية مثل قضيته، وهذا هو مبعث قلقه، فمن المستبعد في القضايا الأمنية أن يطلقوا سراح أحد ويخشى أن يقرروا في لحظة ما أن يتركوه لمصيره في سرداب ليهلك هلاكا بطيئا. حين وضعوه أخيرا في هذه الغرفة العارية إلا من كرسي ومنضدة وأخذوا يوجهون اليه الأسئلة أصبح أقرب الى اليقين من أن الذين كانوا يحققون معه لا تهمهم نتيجة التحقيق وحين يضربونه فإنهم يتسلون بإهانته لا أكثر، ما زاد من مخاوفه. راوده أمل في أن يهتموا باتهامه أية تهمة ويحيلوه الى المحكمة ليطمئن الى أنهم لن يسلموه الى

موت مجاني لا يترك له أثر، بينما الذهاب الى السجن ينطوي على إحتمال أن يستعيد حياته.

أعتقل قبل بداية القصف بأسبوع وهو في طريق عودته من مبنى الجريدة بعد إن إستلم مكافأة القصة، ولذلك هو لا يعرف ماذا حل من خراب خارج هذا المكان وماذا حل بأهله. أحيانا يتساءل عن مصير المحرر الذي نشر له القصة والذي تردد أسابيع قبل أن يقرر نشرها في عدد الجريدة الذي يصدر يوم الجمعة مقدرا أن الجريدة لا يقرأها المسؤولون في ذلك اليوم وستمر القصة دون أن تثير إنتباها.

لكنها أثارت الإنتباه.

ظل ينظر الى الباب ساكنا فيما السماء تستعيد من السواد الحالك زرقتها، وتخف أصوات الانفجارات، شيئا فشيئا، دون أن يسمع صوت مؤذن يؤذن لصلاة الفجر أو ما يوحي بأن حياة دبت في الشوارع خارج هذا المبنى، أو داخله. هزه الشوق لسماع أي شيء يذكره بالحياة في الخارج، بالحياة العادية قبل إعتقاله وقبل القصف، ولو أنه فقط سمع مؤذنا يؤذن لصلاة الفجر لهدأت نفسه قليلا، ولكنه بعد دقائق أحس بشحطة خارج الغرفة صادرة من شخص ينهض عن كرسي أو يسحب شيئا، ثم خطوات على البلاط، وبعدها توقف ظِلٌّ يعكسه مصباح الممر

أمام الباب قبل أن يسمع صوت المفتاح يدور في القفل. ظهر أمامه الرجل الذي تولى أولا التحقيق معه بالأمس ووجه اليه أكثر الصفعات إيلاما. تركزت أسئلة التحقيق التي كررها عليه بالأمس، هو ومن بعده، على معنى النص الذي ترجمه من الإنكليزية ونشره في الجريدة. لم يكن يملك من دفاع عن نفسه سوى أن القصة أجنبية وكاتبها أجنبي مات منذ زمن بعيد ولا يمكن أن تنطوي على شيء له علاقة بالعراق. برغم ما لقيه من إهانات لم يفتأ في قرارة نفسه يردد «إذا بقيتْ على حد الصفع والركل نعمة» لما سمعه وقرأه عن وسائل التعذيب الوحشية التي يتعرض لها الموقوفون في مثل هذه الأماكن.

انكمش كيانه كله عندما رأى الرجل الطويل ذا القوام الرياضي أمامه، ولكنه لاحظ أنه ترك الباب مفتوحا على سعته ووقف بعد أن تجاوزه وهو يضع سيجارة في فمه ويسحب منها نفسا عميقا ناظرا اليه بتفكر. لم يستشف من وضع رجل الأمن ما ينبئ بأن تحقيقا سيبدأ، لا بل أنه، وهو يتفحصه متوجسا خائفا، أخذ يشعر أن نهاية ما على وشك.

ألقى الرجل عقب السيجارة في الزاوية القريبة من الغرفة. تأنى كمن يجد صعوبة فيما سيقول وهز رأسه هزة خفيفة:

-حظك عدل...

ثم أضاف:

-لقد نجوت من حكم بالسجن إن لم يكن بالإعدام... ليس هذا فقط بل ستخرج من هنا وتعود الى أهلك أيضا..

وجال ببصره حوله ثم رفعه الى السقف:

-قد يتعرض هذا المبنى الى القصف في أية لحظة....

بذل جهدا ليبتسم إبتسامة مستهينة ويتابع قائلا:

-.... لقد أمر الضابط قبل الإنتقال الى المكان البديل أن أتركك تذهب، إنسحب الجميع من الدائرة... لا يوجد غيرنا نحن الإثنان... أنا وأنت. أنت حر الآن.... يمكنك الذهاب....

وأشار له بيده اليمنى يدعوه للذهاب لكنه لم يتحرك من مكانه بل ظل ينقل بصره ما بين الرجل والباب المفتوح وهو يتساءل في سره إن كان يخدعه أو يهزأ به لا أكثر. رأى كيف تتسع الإبتسامة المستهينة متحولة الى تكشيرة:

-لك الحق أن تخاف... أصبح السير في الشوارع خطرا الآن، ولا توجد وسيلة نقل توصلك الى أهلك... من المحتمل أن تقتل....

شعر أن في كلامه نبرة خبث، بل نبرة سرور، لأنه عاجز عن الخروج من دائرة الأمن، ولكن تردده من الخروج لأنه في الحقيقة خائف مما قد

يحدث له هنا وليس في الشارع إذا ما قام وحاول المرور من الباب ورجل الأمن واقف هناك ينتظر منه الإقتراب ليقوم بضربه وركله، وإلا لماذا لا يزال هنا ولا يذهب الى حيث ذهب زملاؤه كما يدعي؟

-حسن. ما دمت لا تشعر الآن برغبة في الإنطلاق نحو الحرية كما تعبرون...

ضحك ضحكة قصيرة مبتورة وحدجه بعينين واسعتين تبدوان رماديتين:

-.... لا يزال لدي شيء من فضول المحققين بشأن قضيتك. هلا أخبرتني الحقيقة ونحن على وشك أن نفترق وربما لن يرى أحدنا الآخر بعد الآن...

سكت لحظة وهو يفتش في باله عن أنسب الكلمات ليقول ما بدا له أنه لا مفر من قوله:

-فلنكن صريحين.... الوضع خطير جدا ولم ير السيد المدير أن قضيتك تستحق الإهتمام في هذا الظرف. ما أريد أن أقوله هو أنه لم تعد توجد حكومة تقريبا، ولم يعد يوجد من يحاكم ومن يسجن، ويمكنك أن تتحدث كما تشاء... ما هذه القصة الغريبة التي ترجمتها وفي هذا الوقت بالذات.. حاكم يلقبونه بمولانا وسيدنا يسيطر على حياة

المثقفين أمثالك ويجعلهم كالآلات فاقدي الإرادة والمشاعر.... ماذا كان عنوان القصة؟

أجاب وهو يغالب الدوار وخدر السهر في رأسه:

-الكُتّاب.

- الكُتّاب.... قل الحقيقة.... هل قصدت بمولانا سيادةَ الرئيس. لم تكن توجد في الأصل كلمات من نوع مولانا وما شابه لكنك أضفتها من عندك لتقرب مغزى القصة لما تريد وتهزأ بسيادة الرئيس. صحيح؟ لا أريد منك شرحا بل جوابا بنعم أو لا.

فكر... يحاول أن يستدرجه ، بعد أن طمأنه بخدعة أنه حر في الذهاب الى بيته. إذا لم تعد توجد حكومة كما يقول فيستطيع أن يحكم عليه إذن ويعدمه بنفسه. يحصل منه على ما يحلو له أن يعدّه إعترافا ويقتله ويغادر. ما المانع؟

-أنت لا تصدق أنك مطلق السراح... ولا تصدق أن سؤالي مجرد فضول لن يكون لجوابك عليه تبعات...

وتقدم نحوه بخطوات متمهلة:

-.... لم أشأ أن أغادر وأتركك تلقى حتفك تحت أنقاض المبني.

رأى الابتسامة، وقد عكرتها مسحة من الإنزعاج، تعود لترتسم على الفم الواسع وسط وجه أسمر مدور:

-جسورون وخوافون. أنتم الذين يسمونكم مثقفين... تفعلون أشياء لا تطيقون تحمل نتائجها... والآن لماذا لا تنهض وتخرج؟ ألم يكن هذا هو أقصى ما تتمناه؟

نزلت الصفعة على خده مع كلمة " جبان" ثم أعقبتها صفعة ثانية على رقبته وثالثة بظاهر الكف على خده الآخر، وتوقف لينظر اليه النظرة التي يوجهها من يشعر بالرضا عن نفسه لأنه وضع خاتمة مناسبة لوجودهما هنا معا، وابتسم وهو يومئ برأسه إيماءة المحسن، ثم استدار بحزم وسار منصرفا.

سكون غير عادي خيم على المكان بعد أن إنقطع صوت الخطوات المبتعدة. هل توقف الرجل في الخارج فجأة يا ترى أم دخل غرفة أخرى أم تلاشى؟ هل يعقل أنهم أخلوا الدائرة حقا وتركوه ليذهب الى حيث يشاء؟ أصاخ السمع... لم يعد يسمع أصوات إنفجارات. رأى السماء، من الشباكين، وقد بسطت زرقتها على ضوء الصبح الدخاني. فكر أن البقاء جالسا هكذا لا يجدي وربما كان الرجل صادقا بشأن خطورة

البقاء هنا. تحامل على نفسه لينهض فأحس بألم في ظهره وساقيه، حتى رأسه إخترقه صداع نابض مفاجئ، ووقف متشنجا الى أن إستطاع التحرك ببطء. بعد أن خطا الخطوات الخمس التي تفصله عن الباب إستند بيديه الى إطار الباب ومد رأسه خارجا. تلفت يمينا ويسارا فلم ير شيئا ولم يسمع صوتا. سار في الممر على غير هدى مارا بغرف بعضها مفتوحة الأبواب ولا يوجد في داخلها أحد، أثاثها فيها والرفوف لا زالت عامرة بالأضابير. يحس إحساسا محبطا بأنه مراقب، وأن رجل الأمن الذي تركه للتو يراه من مكان ما أينما ذهب، ولكنه يستمر في المسير، عليه أن يواصل المسير إذ لم يعد له خيار غيره. نبذ فكرة أن يستطلع الغرف أو يدخل أي مكان بل أن يلزم الممرات ويجد لنفسه وسيلة للخروج بأقصر طريق وأسرع وقت. سار من ممر الى ممر ونزل سلما الى ممر أفضى به الى سلم آخر حتى أصبح في ممر على يساره حائط لا باب فيه فيما توجد الى اليمين على طوله نوافذ تطل على ساحة وقوف السيارات حيث يوجد عدد من السيارات المتروكة، ومع أنه أمل فرحا أن هذا الممر سيؤدي به الى الخارج تريث قليلا لينظر الى الساحة ليرى إن كان يوجد أحد أو ما يستوجب الحذر... لا شيء.

لكنه في تلك اللحظة بالضبط شاهد عشرات الأشخاص كأنما خرجوا من باطن الأرض، أناس غاضبون يتصايحون ويتدافعون، وفي أيدي بعضهم هراوات وقضبان حديد، هجموا من البوابة في كتلة واحدة وتفرقوا داخل الساحة وتناهى اليه صوت تحطم زجاج. سمع أصواتا تتنادى « لا تتفرقوا... هيا الى الداخل... أقتلوا من يقف بوجوهكم منهم..» وسمع شيئا عن أضابير، وعن موقوفين.

أدرك أن ما قاله رجل الأمن صحيح ولم يكن خدعة يستدرجه بها وقد إنهار الوضع كليا الآن. تراجع غريزيا الى الخلف وهو يشاهد رجلين مسلحين ببندقيتي كلاشنكوف يتبعهما رجال آخرون اندفعوا نحو مدخل في الطابق الأرضي، تحته مباشرة. حاول أن يركز تفكيره ليعرف ماذا يفعل... أناس غاضبون ولا شك، ولكنه لا يعرف على وجه اليقين من هم وماذا يريدون وربما لن يكون التقاؤه بهم في هذا الممر في صالحه. كل ما خطر على باله، وهو في إرتباكه، أنهم حتى لو كانوا ضد الحكومة فليس مضمونا أنهم سيعرفون ، من مظهر ملابسه التي تحول لونها الفاتح الى كالح مبقع من الوساخة، ومن وجهه الذي تظهر عليه آثار الضرب، أنه موقوف جاء به حظه العاثر الى المكان المشؤوم في الوقت الخطأ بل فكر أن هؤلاء الرجال ناقمون يسوقهم

إنفعال شديد وسيأتون مندفعين وقد يتوهمون أنه رجل أمن تخلف عن زملائه ولن يستطيع أن يقنعهم أنه معتقل قبل أن يؤذوه. ربما أطلق عليه أحدهم الرصاص من مسافة قبل أن يصبح قريبا بحيث يرى حالته، ومن الحكمة أن يعود من حيث أتى ويغلق الباب ويجلس في الغرفة، وعندما يصلون اليه سيرى ماذا يحصل، ومن الأفضل له أيضا أن يستغل الوقت في الدعاء لله قبل أن يصلوا، شيء منه قد ينفع. لم يسعفه عقله بغير هذا الحل في تلك اللحظات التي كان يشعر فيها بكل الآلام التي أصابته خلال الأيام الماضية تهيج... مخاوفه وهواجسه، وجع ساقيه وظهره، وصداع رأسه. تعثر حين استدار متعجلا العودة وهو يسمع أبوابا تفتح بعنف وأشياء تتكسر وصياحا مبهما. استطاع صعود السلم الذي نزل منه ولكنه عندما وصل الى أعلاه وجد نفسه في مفترق ممرين طويلين ووقف حائرا بين التوجه الى اليمين أو الى اليسار بينما خيل اليه أن الأصوات الصاخبة تأتيه من الجهتين.

آذار ٢٠١٧

ثلاثة على لوح يحمله السيل

قبل أيام مات (تكليف). أشهد أنه عاش حياته فقيرا، ومع فقره كان صابرا دون شكوى، ودون رضا أيضا. مع ذلك لم تكن حياته خالية من المتع والمسرات التي يحسن التكتم عليها. عندما يكون قد قضى وقتا ممتعا ألاحظ إنشراح المتعة على ملامح وجهه وطريقة كلامه الأكثر مرحا من المعتاد وربما زين مرحه بلازمة كأن يردد بصوت هادئ (يا صاح) مقلدا رياض أحمد وهو يهز رأسه الذي يعتليه شعر أبيض كثيف سبط. لكن هذا ليس في السنوات الأخيرة التي صار فيها أكثر هدوء وأكثر تكتما. هكذا عرفته منذ نعومة أظفاري، وهو الذي يكبرني ببضع سنوات، وإن إشتركنا في أننا أدركنا شطرا من العهد الملكي وعشنا معا أزمنة الجمهورية العاصفة، التي كانت بالنسبة اليه أكثر عصفا مما كانت بالنسبة إلي.

يستمع لما يقوله جليسه وفي عينيه يتلألأ خبث، أو يراقب ما يدور حوله، وفي اللحظة المناسبة يرمي «طرقته» فيضج المكان بالضحك أو يقوم جليسه غاضبا منه ليعود في اليوم التالي فنراهما جالسين معا في مقهى الحي القائم على طرف بستان واسع تحيطه السواقي ومسيج

بسياج من الطين. لم يكن الجميع يحملون ما يقول على محمل الجد، خصوصا في أيام كهولته التي حكى لنا في يوم من أيامها طرفته المشؤومة. أنا صدقته رأسا فما رواه كانت تعاودني ذكراه منذ طفولتي ولم أجرؤ على البوح به لأحد خشية أن يكذبني ويسخر مني. خلاصة القول أني رأيت ما رأى وعلى النحو الذي وصف.

كان الحديث يدور بيننا، رواد المقهى، عن الغرائب وهو طوال الوقت سارح البصر، يسحب بين الحين والآخر نفسا من النارجيلة، ويصغي الى ما يقال عن طنطل ظهر ذات ليلة هنا ومخلوق عجيب ولدته امرأة هناك ثم ، وكنا آنذاك نتوقع فيضان دجلة، تحول الحديث الى الكوارث وما تفعل والفيضانات وما تهدم وسيولها وما تحمل. إنحنى في جلسته وأخذ يلف خرطوم النارجيلة حول زجاجتها ثم اعتدل وبدأ الكلام. لكن بعد أن أنهى حكايته القصيرة رأى الإبتسامات المتشككة تحيط به من كل جانب، أيعقل أن إبن آوى وكلبا وديكا يرتقون معا، جنبا الى جنب، لوحا من الخشب يحمله سيل الفيضان... هذا محض خيال لا تتفتق عنه إلا قريحته!

من المرات القليلة التي رأيت وجهه ينقبض ويتحول بياض بشرته الى احمرار عكر كانت تلك المرة، ويبدو أن الآخرين لاحظوا مثلي ما

جعلهم يراجعون أنفسهم ويميلون الى التصديق. بادر عامل المقهى الذي كان يقف قرب الوجاغ الى تبديد جو الوجوم متسائلا:

-زين..... ألم يكونوا يتعاركون مثلا؟

تردد في الرد بعد ما رأى من تشكيك. الواقع أن الخشبة، التي صعدت اليها الحيوانات الثلاثة ناجية بالصعود اليها من غرق أكيد ، ولا يدري أحد كيف اجتمعت على ظهرها، هي على وجه التحديد باب خلعتها المياه المندفعة، وكانت ذكرى رؤيتي للمشهد غائمة كحلم بعيد وأنا طفل ألتصق بأمي فوق بناية المركز الصحي التي استطعنا الوصول اليها والاحتماء بها مع عوائل أخرى، مع مشهد المياه الطينية الفوارة الصاعدة حتى حافة السطح، وهي تمر بنا جارفة قطع أثاث، وحيوانات تتخبط وتتقلب، وجثة رجل، وحصان يكافح ليبقي رأسه فوق الماء، وأغصان أشجار،....

قال:

-بل لم يكونوا يلتفتون الى بعضهم البعض حتى...

وبعد أن جال ببصره في الوجوه وعاد للنظر الى عامل المقهى مستعيدا هدوء ملامحه:

– ولماذا تعجب يا عبد... لقد شغلهم الخوف والذهول عن عداواتهم الغريزية كالسياسيين بالضبط يركبون مركبا واحدا وهم في حقيقة الأمر يرى أحدهم الآخر كما يرى عزرائيل.

بعد أيام اختفى، ثم علمنا أن رجال الأمن "شالوه"، وعندما عاد بعد سنوات، أسر إلي أن سبب إعتقاله وسجنه كل هذه السنين لم يكن سوى حكاية إبن آوى والكلب والديك، ولأنه لم يستطع أن يجيب رجال الأمن جوابا شافيا على سؤالهم " مَنْ هم المسؤولون الذين قصدتهم بإبن آوى و الكلب و الديك" ؟ كبرت التهمة لتصبح التآمر على أمن الدولة، وأخضعوه للتعذيب أشهرا ثم حكموا عليه بالسجن المؤبد ولم يفرج عنه إلا قبيل احتلال العراق سنة ٢٠٠٣، ولم نعرف الى اليوم من لفق له تهمة التعريض بالمسؤولين.

عاد صاحبنا الى جلساته التي اعتدناها قبل دهر، لكن المقهى لم يعد كما كان، و رواده ليسوا هم أنفسهم فقد مات العديد منهم وجاء رواد جدد أغلبهم شبان. ليس المقهى وحده الذي تغير فقد تغيرت معالم المكان حوله.. أزيل السياج، والبساتين جرفت، والسواقي التي كانت تحاذي أبوابنا طمرت، وإنتشرت البيوت مكان البستان الذي كان مصدر خوفنا في طفولتنا ومرتع عبثنا في مراهقتنا. الحيوانات التي كانت

تعيش في البساتين، من بنات آوى وخنازير وأفاع وجرذان النخل والغرير، إنسحبت الى البساتين الشاطئية وأدغالها أمام زحف البشر المدمر، ولكن بعضها كان يتحين الفرص، خصوصا إذا كان حيوانا واسع الحيلة كإبن آوى، فيخرج ليلا بحثا عن غذاء حول البيوت المتفرقة الى أن تورط إبن آوى يوما فأخرجه الجوع في وضح النهار ليلمحه أحد الصبية ويصيح بأعلى صوته "واوي.... واوي..."، ولم يدر إبن آوى بعد ذلك كيف يفلت من البشر الذين حاصروه من كل ناحية وبدأت مطاردة قصيرة إنتهت بالإمساك به في قن للدجاج فارغ دخله راجيا أن يضلل مطارديه. ذكرت ذلك لتكليف عندما تقابلنا في المقهى ليلا. تراءى لي طيف ابتسامة يتماوج على صفحة وجهه. التفت نحوي وهو يمسك بمبسم الخرطوم بقبضته الصغيرة، ثم أدنى رأسه مني وقال همسا:

-لقد رأيتهم بالأمس ليلا.

لم أفهم معنى كلامه ولما رأى حيرتي أضاف:

-إبن آوى والكلب والديك... على اللوح.

فوجئت بعودته الى تلك الحكاية القديمة وفكرت أني لم أقدر تقديرا صحيحا مدى سلامة عقله بعد خروجه من السجن، فليس من عاقل

يصدق أن الكلب والديك وإبن آوى لا زالوا، منذ فيضان حدث في العهد الملكي، يعتلون خشبتهم ويطوفون الــ.... في تلك اللحظة خطر لي سؤال تصورت أنه سيفحمه:

-أين رأيتهم؟... يتزحلقون على الأرض حولنا؟

أمال رأسه الى الخلف ونظر إلي نظرة المستنكر لسذاجتي:

-في الشط... عندما ذهبت بالأمس ليلا لأساعد خليل في تصليح مضخة الماء.

قلت وأنا أرمقه بطرف عيني مترقبا تحول لون بشرة وجهه الى إحمرار عكر:

-قد يكون إبن آوى الذي أمسكوه اليوم هو ذلك الذي رأيته بالأمس على الطوف.

وكتمت ضحكتي بصعوبة. حرك يده التي تمسك بمبسم النارجيلة حركة إستخفاف بسخريتي. لكنه واصل، مع خيبته لما بدر مني، يقص علي، دون أن يلتفت إلي، ناظرا أمامه خلال الظلام، عبر الأرض الفضاء التي تفصلنا عن أضواء دور شاحبة متباعدة... دجلة التي كانت تلصف بمياه فضية فيما مضى هي الآن أمامه داكنة يرقش حلكتها إنعكاس قمر ذاو. بعد أن ركب للمضخة سيرا جديدا بدلا من السير

المقطوع، وقف تكليف ينظر الى المياه الثقيلة تنساب بهدوء كانسياب مياه الفيضان بعد إندفاع هائج ليومين جارفة معها الأشجار والطين. لا أحد يعلم، ولا حتى أنا، كم مرة رأى الثلاثة، دون أن يخبر أحدا، وهم يمرون أمامه مرورهم المعتاد، في ليال مقمرة وغير مقمرة، على باب مخلوعة، لا يجنحون الى البر ولا يغرقون، ينظر اليهم ويعجب لإجتماعهم على لوحهم، وكم مرة نظر الى الماء الموار في الحوض الذي تسحب اليه الماكنة الصخابة ماء النهر، ويتدفق الى جداول تتفرع في أنحاء البستان، فيمد يده ويغرف من الماء غرفة يتركها تتبدد من بين أصابعه ويتحسس بإبهامه ما تخلف في باطن كفه من لزوجة خفيفة وذرات ذات ملمس رملي لم يعهدها في ماء النهر من قبل. يرفع بصره ليرى الى أين إتجه الثلاثة هذه المرة، وفي أية إنعطافة من إنعطافات نهر دجلة إختفوا.

حزيران ٢٠١٧

يوم ككل الأيام

قال الرجل الكهل وهو يقود سيارته (الجكسارة) نيلية اللون ببطء شديد على السدة مخاطبا بغضب ، ولكن بصوت واطئ، أكبر الصبيين في الأسفل حيث يجري جدول صغير:

-إبن ... ضع النفط عند الجذع مباشرة! قدر حفنتي نفط يكفي. لا نريد أن نضطر للعودة ثانية الى نفس الأشجار لسكب النفط عليها.

رد الصبي بلفظ الإحترام الدارج:

-إي عمي!

ورجع الى الوراء عابرا الجدول ليسكب مرة أخرى قليلا من النفط من الحاوية البلاستيكية الصغيرة عند جذع النخلة الشاهقة. أشار الى أخيه الأصغر الذي يحمل هو أيضا حاوية بلاستيكية بأن يذهب الى خط الأشجار الثاني لينتهيا من عملهما بسرعة ويقبضا من الرجل ما وعدهما به من أجر مجز. لكنه في اللحظة التي أراد فيها سكب النفط وقع بصره بين أعشاب الحلفاء على جسم صغير يتحرك فانحنى أكثر مزيحا الحلفاء جانبا. تبين له أن الكتلة السمراء المتحركة ما هي إلا فرخ عصفور لم ينبت له ريش بعد. نظر الى الأعلى، الى أغصان شجرة الرمان المجاورة

للنخلة، فلم ير ما يدل على وجود عش سقط منه الفرخ، وحتى لو رأى العش فإنه لم يكن ليترك العمل المكلف به ويتسلق الشجرة وذلك الرجل يراقبه بعينيه الحولاوين. التفت بحذر وتهيب ناحية السيارة وهو يضع الفرخ في جيب سرواله الواسع ويتجاوز سريعا شجرة الرمان دون أن يلقي عند جذعها نفطا، مفكرا أن يعيد الفرخ الصغير الى عشه فيما بعد . الحقيقة أنه لم يكن قد قرر بالضبط ماذا يفعل. ربما يحتفظ به ويزقه الغذاء حتى يكبر... شيء بسيط، يضع قطعة خبز أو صمون في فمه ويمضغها الى أن تصبح لينة متفتتة ويناولها له قليلا قليلا. إبتسم وهو يشعر بحركة الفرخ المدغدغة على فخذه والتفت الى شقيقه... سيسر كثيرا بما وجد.

ألقى الكهل نظرة سريعة نحو أطراف البستان قبل أن يعود للنظر الى الأمام، الى أقرب نقطة حراسة أمنية من النقاط الموزعة على طول السدة، خشية أن يكون أحد الحراس موجود في المرقب ويرى ما يدور عند هذا البستان الذي يعد من البساتين القليلة الباقية التي لم يطلها التجريف بين الجسرين. سيكون من الأفضل أن لا يرى أحد شيئا ولكنه مع ذلك لم يكن قلقا كثيرا من رؤية الحراس له ولا حتى من رؤية صاحب البستان له.

سأله الشاب الأصهب الأمرد الذي يجلس في الجكسارة الى جواره:

-هل يجب أن يلقى النفط على كل نخيل البستان؟

لم يلتفت اليه بل أجابه وهو يواصل النظر الى البرج... أو أبعد:

-عندما يموت هذا العدد من النخيل أو على الأقل عندما يموت عدد من الأشجار المثمرة الأخرى سيقرر بيع البستان، وعندها سنكون قد هيأنا من يتفاهم معه، ولا نكون بحاجة الى إجراء أشد...

تساءل الشاب:

-وهل يوجد إجراء أشد من هذا؟

-نعم يوجد... أنواع..

ولم يكمل، لأنه لم يكن ميالا الى الثرثرة في هذه الأمور، ولم يكن مرتاحا كثيرا لرفقة الشاب له ولكنه إبن أحد شركائه صادف أن رآى الكهل ينتظر أن يأتي الصبيّان بالنفط وهو جالس على مرتفع كحدبة أرضية طولية تمتد عشرات الأمتار حتى تنتهي عند الطريق الجديد المسوى بالسبيس. هذا المرتفع هو كل ما تبقى من ضفة نهر مندثر. كان الرجل قد رفع دشداشته الحرير الى أعلى وجلس على سرواله الداخلي ليحافظ على نظافة دشداشته ومنظرها الجميل البراق فيما ركن سيارته جانبا. فعل الشاب المثل وجلس الى جواره حتى جاء الصبيّان من

البيوت القريبة ومرا بمحاذاتهما نحو البستان حاملين حاويتي النفط. ظل الرجلان يتبادلان أطراف الحديث الى أن عاد الصبيان من جولتهما الأولى لملء الحاويات بالنفط من بيت أهلهما مرة أخرى والعودة الى البستان، فتأكد للكهل أن البستان لا يوجد فيه أحد في تلك الساعة ونهض ليراقب عن كثب عمل الصبيين.

إستدار بسرعته البطيئة جدا مع إنعطافة قليلة في السدة وهو يراقب الصبيين. سأله الشاب:

-ماذا نفعل لو شاهدنا صاحب البستان أو أحد الحراس في تلك النقطة؟

كشر قائلا:

-وإن يكن.... موقفنا سليم. نحن نسير في طريقنا. ثم إن صاحب البستان لم يرني من قبل حتى يشك أن لي علاقة.

فإلتفت الشاب ينظر من خلال الزجاج الخلفي المعتم الى الصبي الذي يتنقل بخفة بين النخيل والأشجار:

-والصبيان.

-لا تقلق من ناحيتهما... سيفلتان كعفريتين.

كان الصبي الأكبر في هذه الإثناء قد بدأ الملل من سكب النفط يتسرب الى نفسه، فكل ما يشغل باله الآن هو العصفور الصغير. نظر الى فتحة جيب السروال ليتأكد من أنها تسمح للهواء أن يدخل للكائن الصغير. جمد في مكانه كأنه يتسمع لصوت بعيد. أحس بالحركة المدغدغة وبحرارة ما تنبعث من اللحم الأزغب وتمس فخذه بلطف. إبتسم وواصل سكب النفط. تحرك نحو النخلة التالية وهو يشير لشقيقه الى جيبه. ابتسم شقيقه ابتسامة الذي لم يفهم المقصود من الإشارة. أراد الصبي الأكبر أن يخرج الفرخ من جيبه ليريه لشقيقه ولكنه لاحظ أن الكهل ينظر اليه في تلك اللحظة فإنحنى ليسكب بعض النفط.

قال الكهل وهو يعدل جلسته أمام المقود:

-هل تعلم أننا نقدم خدمة عظيمة الى الناس... وكلها أجر وثواب. يوجد مئات الآلاف من العوائل لا تمتلك سكنا. نحن نوفر لبعضهم هذا السكن وبثمن زهيد... بأرض هذا البستان والأراضي الزراعية الأخرى يكون مكتبنا قد وفره لمئات العوائل هنا. نشتري لهم الأرض بمال حلال ونبيعها لهم. عندما يتم التمليك يكونون قد حصلوا على مسكن بعشر ثمن المسكن الطابو.

سكت كأنه يفكر مليا بما سيقوله:

-يا له من ظلم.... إنسان بلا مأوى! هل رأيت كيف رج الله بنا الأرض؟ طبعا.... ماذا يرى تحته؟ ظلم وفساد...

كان الشاب الأصهب ينظر اليه بعينيه الصفراوين وهو يهز رأسه بتأثر مؤمنا على كلامه الذي واصله في اندفاع نبوئي مفاجئ:

-.... أرض العراق كلها تحتها نفط. كم سحب من هذا النفط؟ إن تحتنا الآن فراغات عظيمة. لو يشاء الله يخسف بنا الأرض فلا يبق منا أثرا.

بعد أن تجاوز البستان توقف عند شجرة توت وارفة نبتت في خاصرة السدة. أشار الى الصبيين أن يقتربا منه:

-هل إنتهيتما؟

أجابه الصبيان بصوت واحد:

-إي عمي!

-عفية...

ووضع بيد الأكبر ورقة ذات الخمسة وعشرين ألف دينار.

-... هيا إذهبا ولا تثرثرا عن....

وأشار بسبابته نحو البستان. إنطلق بالجكسارة فيما نزل الصبيان من السدة وهما يتأبطان الحاويتين الفارغتين. ما أن قطعا مسافة حتى توقف الصبي الأكبر وقد إنتبه فجأة الى أنه لم يشعر بحركة الفرخ في جيبه منذ بعض الوقت. مد يده بحذر وأمسك برفقٍ الجسدَ الرخو بعظامه الرقيقة فلم تبدر منه حركة. دق قلبه بعنف وهو يخرجه دون أن يعبأ بأسئلة شقيقه المليئة بالإثارة والتطلع:

-ما هذا؟... ما هذا؟ عصفور؟ أين وجدته؟

ثم لاحظ بوجوم، مثل شقيقه، أن الجسم الصغير بجناحيه العاريين الممدودين بارتخاء ورأسه المتدلي من بين أصابعه ومنقاره الدقيق الأصفر الفاغر لم يعد حيا. نظر بتمعن الى الرأس ذي الجلد الشفاف فرأى ما لم ينتبه اليه حين حمل الفرخ ووضعه في جيبه، تحسس الرأس ، يوجد نفط على الرأس والعينين والمنقار، لا بد أن شيئا من نثار النفط الذي ألقاه عند جذع النخلة قد أصابه وهو ساقط في مكانه قبل أن يراه، أو سقط عليه شيء منه من فم الحاوية.

بعد قليل من التأمل المداف بالأسى والخيبة الطفولية نظر حوله فوقع بصره على الكتلة الإسمنتية التي كانت تشكل فيما مضى أحد جانبي القنطرة الصغيرة التي تقع على النهر المندثر. توجه اليها ووضع

الفرخ عليها ثم وضع يده على كتف شقيقه ودفعه بلطف يدعوه للسير.
بعد خطوات قليلة أخذا يتجادلان حول ما سوف يفعلانه بحصتهما التي تعطيهما إياها أمهما.

تشرين الثاني ٢٠١٧

إعتزال

انشغلت عن أمري بالتطلع الى إغتمام يتهافت من النافذة المحصنة بالقضبان المتقاطعة. إنفراج مطري يهيئ أبعاده للوميض. كنت الوحيد في القاعة. شعرت بالبرد وسط الدفء واقشعر جسدي بين جدران كسيت برفوف خشبية فارغة. حاولت أن أستعيد تفاصيل خارجية جئت منها ضاعت في عتمة الممر الذي يفضي، بعد أبواب وجدران أعلاها زجاج وأسفلها خشب، الى غرفة دريد مدير الذاتية. لكن نظري لم يتجاوزه، نظرت اليه من الزاوية المعتمة حيث وقفت أنتظر وهو على ضوء الرعد المقبل ذي الألوان المتقلبة، جامدا واجما لا تبدر منه غير حركة يدين لا تتباعدان، يد تسحب الورق ويد تؤشر بالقلم إشارات لطالما كرهت معناها. رجل يتمترس بالصمت ضد الإلفة لكي لا ينطق حين يفتح فمه إلا أمرا. تلك عزلة أقسى من إعتزالي لأن إعتزالي إلفة وحيدة. لم نتفق وحافظ على محيط غير مرئي أمامه أصغر من النافذة التي لا يلتفت اليها خشية أن ينزلق عن كتفيه رداء الكبرياء الفضفاض. أما أنا فأشعر أن تواضعي انتظار ورقي يتدحرج لمرأى زوبعة قادمة.

ذلك الغصن الطويل على النافذة لم يخْفِه الكدر تماما، رأيته يهتز على إمتداد قضيب حديدي أكثر ثباتا منه ومني، غصن متفرد بمداه مثلي، يتحرك نحو نفسه ويجذب إختفاءه اليه، واضح في قنوط حلو لأنه يتدثر بدفئه ويرتكن إرتكانا ينث... مثلي.

ما أهمية أن يوجد شيء آخر غير الذي بوسعه إجتذابي... غير الذي بوسعي؟ غصن أشترك الآن معه في إخضراره المبترد عبر مسافة أو مكان لم نشغله معا.. ما ينقصنا هو إسم يجمعنا بصوت عال يسمعه حتى عَبَادة الذي قرر أن يرقص ويغني الى الأبد في الشارع.

إعتزالي تفرُّغٌ لمراقبة خشب يخضر ويذكرني بالحديقة التي لم أزرعها في بيتي وتركت أرضها ملعبا لأطفالي الذين كبروا الآن وانتبهوا الى أن غبارها لم يعد يناسبهم فأخذوا يزرعونها شجيرات لا تزال أصغر من أن تمد لي غصنا. ساعدتهم أمهم بحماس لتفهمني أنها تعرف الكثير عن الحدائق التي لم أزرعها فيها، وطالبتني بتراب خصب للحديقة فاشتريته بالأمس ليشهد على هزيمتي وجدبي الخاسر.

لكنني اليوم إثنان، واحد خارج الدائرة يتعلم الرقص والغناء في تدريبات حرة لا تنتهي، وآخر داخلها يتمرن على السكوت الآمر الناهي، السكوت الذي ظل فضفاضا عليه وآيلا الى الإنزلاق عنه،

يدنيه الجدار مني فأستسلم لدنوه، أختم الستين وأحتفل بهذا الختام بالإعتزال.

أعرف أن الستين سن يرى المرء بعدها في كل شيء ما يدفع الى السخرية فأجعل السخرية إحتفالي وأراقب موظفة قميئة تنتحل الفتنة وتدعي الإمتلاء الشهواني... أعرف أباها... كان عاملا معنا وجاء بها الى الوظيفة قبل ثلاث سنوات ليلحق مستقبلها الأنثوي بماضيه الذي لا جنس له. كانت تسير خلفه مرتدية أنبوبا مرقطا وتبتسم إبتسامة هي نسخة مراهقة من إبتسامته الخرقاء. ها هي الآن تتحرك على كرسيها بتعال لا يخفي بلادتها... لا تزال أمامها سنوات طويلة. لن تعرف كم سنة دفعتُ لأقايض السخرية بالكآبة، وأن أمد أسبابا للعقوبات لا يشاركني بها أحد... عوقبت مرة لأني تساءلت ما الذي جاء بي الى هنا، ومرة لأني صحوت من حلم لم يغادرني خدره، ومرة لأني سمعت كلاما عن الأماني أخذت أردده، ومرة لأني تشاجرت من أجل المشاعر، وحين تخلصت من سطوة الأحلام عوقبت أيضا لأني صرحت بأني لا أعترف بالأحلام، فأصبت بالكآبة وكثرة الأطفال.

ها هم قد عادوا الى العمل بعد تطلع قصير الى الجو. عادت رواء أيضا الى تفحص أوراق إعترفتُ بها قبل أن تكون وضمَنْتُ إعترافي

بصور شمسية وعرائض أيام، لم تعد تهمني، خلفتني وراءها. أراها تهز رأسها وهي تعض برقة طرف القلم أو تنقر به على أسنان لم يَخْبُ بياضها بعد. منذ سنوات كثيرة وأنا ألاحظ جمالها يكبر معها، يتقدم معها في السن ويكتسب رزانة لا شيخوخة فيها. قالت لي:

-اكملت خلاصة هذه الإضبارة ولكنها لا تزال ناقصة.

قلت لها بفتور يستحقه النقصان:

-وما العمل؟

- خذ هذه الورقة يسلمك بموجبها موظف القسم الفني الإضبارة الفرعية فقد توجد فيها نسخ من الأوراق الناقصة عندنا.

نظرت في الورقة فإذا هي تواريخ عقوباتي وأمامها فراغاتي. أي عقاب ضال لم يردعني وأية مكافأة لم تنفعني ستجد رواء في الإضبارة الأخرى؟

سرت محاذيا أشجارا أكثر انتشارا من أن تحميني من رذاذ السماء، ابتعدت عنها وعن انحناءات لا تجدي الى فضاء يصعد دوني مع استقامة الطوابق ويتسع مع انفتاح قاتم لزرقة موارة. كان (عَبَادة) حيث عهدته منذ أن اختار لنفسه دقة لا ننفذ اليه منها، يكنس الشارع كل يوم بنزاهة ويظل يرقص ويغني، لا يدخل الدائرة إلا ليسأل عن

راتبه فيجمعون له من الحاضرين بضعة فلوس. مررت به وهو يتقافز تحت الرذاذ ويدندن بأغنية غامضة. لم أتوقف عنده، ولم يستوقفني هو كالعادة ليطلب مني سيجارة. أسرعت الى رجل الأضابير.

عندما عدت كانت حبات النثيث قد كبرت لكنها لم تتحول الى مطر يعترف بإبتلالي، وازداد رقص عبادة. حركات عنيفة ولكنها لا تكفيه لأن يطير عاليا، رأيت وجهه يكفهر وهو يتلوى نحو السماء فأحسست بعذاب إنسان لا يطير. دلفت الى الاستدارات نفسها والسلالم نفسها والممر نفسه فأجفلتُ هدوء رواء وأنا أدفع بالإضبارة أمامها. حين فتحت الإصفرار الذي كنت أتأبطه سقطت صورة كركمية على زجاج المكتب... ناولتني إياها مبتسمة:

-قد تفيدك...

طالعتني صورة شمسية لشاب أملط الوجه ينظر بعينين واسعتين نحو آلة التصوير. تذكرت أنه كان يتمنى أن يكون ممثلا وقد بذل جهده لتكون الصورة شبيهة بلقطة لممثل هندي وسيم، جانبية ومشرئبة، مهيأة لرقصة بارعة. لكني سمعت القميئة تقول بجذل كاذب:

-إي.... مطرت.... الله!

وكشرت بالتذاذ شاعري لم أكذبه. راقبت الألوان الرصاصية المتفجرة حول غصني الرفيع الطويل. كل ثانية كان الصورة الخامدة تضاء بوميض متذبذب باهر لا يدخل الى أبعد من مكتب دريد.

انقطع التيار الكهربائي فتعالت أصوات متنفسة الصعداء. صار لمستطيل البرق المتجدد المتقلب في النافذة حضور يهشم العتمة المفاجئة ويمنح كل شيء فيها التماعا من لونه. فكرت أن أخرج من القاعة الى الممر الذي تطل نوافذه الخارجية على حدائق على جانبي سكة الحديد ما بين سقائف المعامل وبناية الإدارة التي أقف فيها. فتحت مصراعا واحدا فهبت نحوي ريح مشبعة بالخضرة التي لم تتح لي الفرصة طوال أربعين سنة أن أتأملها فيما كان جسدي طوال هذه السنوات يزداد ترهلا وروحي تزداد قساوة. فغرت فمي لضحكة درداء صامتة وأنا أنظر الى أطراف سطوح سقائف لا يزيل صدأها مطر ولا ريح، وخفضت بصري الى نبتات تحل صرائر الزهور للريح المبللة، زهور تغتسل أمامي اغتسالا يكاد يدمرها وينثرها للخفق. انتبهت الى أني لا أعرف أسماءها، أربعين عاما وهي تزهر كل عام أما ناظري وأنا أغوص في شيخوختي ولم أعرف لها إسما. تفصل بيننا نافذة لا غير، لكني أعرف

أسماء جميع المكائن في السقائف التي عبرها وكل جزء فيها، كل عين بالزيت تغلي وكل جوف حديدي بالزيت يحترق.

اشتد المطر متحولا الى سيل مضيء تتزاحم قطراته وتتدافع على الحواف الخارجية. ضحكات إنثوية تتناغم وتتقارب وتحتشد خلفي. تكتكات الأحذية المدببة مرت بترفها قربي، ومسني نهد فارتعشت شيخوختي. استدرت لأتابع الأجساد الصغيرة تتدافع برفق وتتضاحك متجهة نحو الباب الخارجي لتتفرج على هطول المطر. لم تكن رواء معهن ولكنها خرجت بعد قليل وقبل ان تستدير لتلحق بهن ألقت خطوة إضافية نحوي وقالت مبتسمة:

-أكملت كتابك وهو الآن في الطابعة. عندما تعود الطاقة الكهربائية سيطبعونه وسيوقعه أستاذ دريد وتذهب به الى دائرة التقاعد.

ثم مضت وهي تضع يديها في جيبي سترتها الصوفية وترفع كتفيها الى الأعلى قليلا. في تلك اللحظة التفت لأنظر عبر باب الممر المفتوح نحو غرفة دريد المعتمة. دريد الفتّان.. هكذا كان الجميع يسمونه لولعه بالنفاق والوشاية.. لطالما كرهني الرجل وكرهته منذ أن كنا طالبين في المدرسة المهنية ولم يدخر جهدا ليسبب لي المتاعب، رغم تظاهره بخلاف ذلك. نصف عقوباتي إن لم يكن أغلبها كانت بمذكرات سرية أو وشاية

منه، ومنذ أن أصبح مديرا لم يلب لي طلبا براحة قلب، لكنه الآن سيلبي طلب التقاعد بكل سرور، سيسره أن لا يراني بعد. هكذا فكرت وأنا أنظر الى غرفته. شيئا فشيئا بدأت عيناي تعتادان على العتمة وأخذتُ أتبينه، كان ينظر إلي هو أيضا، وخيل إلي أنه ينظر نظرة متأملة من أعماق عتمته. لا أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة أن نظرته إلي مختلفة، دون أن أميل الى ما أراه مبالغة فأقول أنها خالية من شعوره المعتاد نحوي، ولكنها توحي بشيء. رأيته يقوم من مكانه ويتقدم مجتازا الممر. بدا لي وجهه المنتفخ، وهو يقترب مني، أجمل بلا نظارات وأقرب الى دريد الذي كان كاتب أوقات في بوابة المعامل يحرس الأرقام النحاسية المعلقة على لوحة خضراء. يسلم كل عامل قرصه الخاص دون أن تغفل عينه عن يد العامل الأخرى لئلا يخطف قرص زميل له غائب أو متأخر لكي لا يسجله في سجل المخالفين بعد أن يحصي الأقراص المتبقية ويرفع مذكرته الى المدير الإداري، كما كان يراقب أفواه العمال أيضا وينال مكافأة عن كل فمٍ مراقَب، ولقد وشى بي ففصلت سنة. حقدت عليه وقتها لكن الحقد بالنسبة لي الآن أصبح قصة قديمة، شعورا مختوما كخدمتي في المعامل، شعورا يستهلكني ويرهقني. حتى في الماضي لم أرغب في أن أتوغل في الحقد كثيرا، لا بل صادف ذات مرة أن أنقذته

من العمال حين أرادوا أن يسقطوه في خزان الوقود المكشوف عندما جاء في إحدى جولاته التدقيقية. ظللت واقفا بينهم وبين الخزان لأمنعهم حتى انصرفَ دون أن يشعر بما كان يحاك له. لا أدري لماذا أشفقت عليه. من الصعب علي أن أرى شخصا مهانا، لا أتحمل النظر الى وجهه في تلك اللحظات، التطلع الى المذَّل يتطلب طاقة لا أملكها، شخصا قادرا على الحقد وعلى استعراضه. لم أرغب أن أرى وجهه الكئيب ناقعا بالسواد الحارق في تلك الظهيرة التموزية الغابرة.

اقترب مني وهو يضع قلمه الباركر في جيب سترته الداخلي، ساهما مطرقا كمن يفكر في مدخل سهل لحوار عصي. صار أمامي... ضربت وجهينا رشقة خفيفة باردة من خلال النافذة فأجفل رافعا رأسه وقد إتخذ فمه الواشي شكل ابتسامة مرتبكة- لم يتراجع ولم ينظر الي بل ثبت نظرته العشواء على الخضرة المنحنية للبياض المنهمر. بعد هنيهة قال بحرارة فاجأتني:

-منظر المطر جميل... تأخر هذه السنة أيضا...

ثم نظر الى السقف...

-وسينفذ الماء من السقف هذه السنة أيضا.

نظرت أنا أيضا الى السقف في بادرة مجاملة كانت هي البديل الوحيد عن تجاهل مخجل له وإحراج لم أعد بحاجة اليهما. نظرت الى حيث بدأت تنزل قطرات من السقف مع الجدار..

-ألم أقل لك؟

لم أره يبتسم إبتسامة صادقة، وأكاد أقول بريئة، كهذه الإبتسامة، كأنه يحاول أن يعيدنا، أنا وهو، في آخر يوم يمكن لنا أن نتقابل فيه على الأرجح، الى أيام المدرسة الخوالي. أية قدرة للإنسان على ظلم نفسه! سنوات وفمه يدفع ابتسامته الحقيقية الى الوراء، وها هو الآن يشي لأول مرة بأنه لا زال قادرا أن يكون صادقا. أشفقت عليه ثانية، أشفقت عليه من ظلمه الطويل ومن صمتي لئلا يطول. أردت أن أبادله الحديث، أن أقول أي كلام لأعين الإبتسامة البريئة على الثبات.

-لكن كيف ينفذ من السقف؟ أليس السقف من الإسمنت؟

أشار بحيوية حسبتها امتنانا الى خط اتصال السقف بالجدار:

-أنظر.... يتجمع الماء في الخارج ولأن التطليعة لم يحسن تسليطها يعود الماء من هناك... ويمر من هنا... ثم....

ولم أعد أصغي اليه. لم يكن يعنيني أن تغرق الدائرة كلها. فمه ينفتح وينغلق بسرعة ويداه تومئان، وجسده يتمايل بحركات تململ على

إيقاعها الصامت سؤال في أعماقي من جديد.. من منا الخاسر يا ترى؟ هو؟ أنا؟ أم ما خسرناه كلانا؟ أيستحق ما بقي أن أغامر بالإلفة من جديد؟ هل بقي متسع في السنين للمقامرة؟ أرجع الى الوراء بعيدا؟ أبعد مما تستطيع ابتسامته أن تعود، أبعد مما استطيع ان أتذكر وأحلم وأرى. تكلم يا دريد... تكلم! لن نغير أسماءنا في كل الأحوال. لن تستطيع أن تقول لماذا اقتربت مني بعد انقضاء لا يشفع للكلام. تركت مكتبك الأبنوسي القديم الذي ورثته من قديم آخر، واش آخر دمر ابتسامته مثلك. لقد حققت حلمك ولن تتخلى عنه بود وصدق ليسا لك. أي سحر فعل بك هذا؟ أهي الظلمة المفاجئة التي أخافتك؟

حين أحاط بي الطنين لم أعد أراه واقفا أمامي. لا انتماء، لا حديقة، لا وجه، لا شيء آخر غير ما انقضى. عبر الباب المظلم، باب القاعة الخالية، عبر كل ما يفسد، أصغيت، أدرت وجهي وأصغيت ناسيا دريدا وإشاراته المتوددة المتأخرة، دنوت أربع خطوات هي كل اتساع الممر... آه... فها هي إذن لم تخرج معهن، ولا زالت منكبة تكتب قائمة تطول... حماقتي الكاملة.

تلك المرأة محرومة من رؤية الامتلاء الطلق مثلهن، ومن اغتنام انقطاع الضوء للتمتع بضوء من ريح وماء. خيل الي وأنا في إنشادي

لآخر آثامي أني سمعت شيئا عن سقف يخر، وخطوات منصرفة. كنت مشغولا بأمر المرأة التي تكتب تواريخ باطلة وأردت أن أقول لها أخرجي كما خرجن، سيكون لديك متسع من الوقت لتسليم أوراق كل ما فيها شاخ وهرم ليضع دريد عليها توقيعه الشبيه بأقراص النحاس المرقمة.

حين بلغت مكتب دريد كشف البرق لي حركة يقطعها الومض لرجلين أحدهما يشد الآخر. كان عبادة يحاول أن يجلس على كرسي دريد وما أن يبدو أنه نجح حتى يجذبه دريد بعنف يطوح بهما معا في تشبث مروع. تركتهما وتوجهت نحو الواجهة الزجاجية التي تفصل قسم الطابعة عن باقي الأقسام وهناك توقفت، على نفس الوميض الذي يقوي بصيص الخارج، رأيت المرأة عبر الزجاج... كانت تنظر الى الطابعة بانشغال استياؤه ذهول وقد غطى وجهها العرق وإنتثر شعرها الأشيب. لم أجرؤ على الدنو منها خشية أن تسألني من جديد عن الحدائق التي فاتني ان أزرعها فيها حتى ذبلت.

١٩٩٤

قنابل وكمأ

نعود عصر كل يوم أدراجنا على الدرب الذي يتلوى بأشكاله الترابية بين تلال ومجاري سيول جافة متشققة وبين سماء استنفدت الظهيرة غبرتها وقلقها فبدت جديدة وناصعة غسلتها الشمس بنور مفاجيء. لم نكن مستعدين لتأمل أي شيء مرئي، نحن الثمانية المرهقون من الحفر والدم وعريفنا المرهق من حثنا عليهما طوال النهار، مكررا نصائح لا تخفف من عنائنا، وتوبيخات لا تدفعنا الى كرهه رغم ما نبذله من كدح.

نسير خلفه على مسافة أمتار ثابتة، لا يفكر هو أن يبطيء قليلا ليجعلها أقصر، ولا أن يدعونا للإسراع لنلغيها. ننقسم بعد استدارتين أو ثلاث أزواجا ونشرع بتجاذب أطراف الحديث عن أي موضوع يخطر على بال جندي يتنكب مجرفة، فيما يسير هو أمامنا غير متعجل كالمسافة التي بيننا وبينه، لا يعير الينا إلتفاتا إلا بين الحين والآخر ليتأكد من أننا نحافظ على الحد الأدنى من الإلتزام وأنه ليس بحاجة الى أن يصدر أمرا. كان حصيفا ويفضل بعد كل حزمه القاسي أن نترك على

هوانا حاملين عدتنا من مجارف ومعاول وأكياس في طريق عودتنا الى مواضع سريتنا عند الطريق الذي يوصل البجيلة بالزبيدات.

سرنا ذلك العصر بارتخاء يوتره صوت قذيفة ثقيلة تمرق عابرة فوقنا فتسبقنا الى حيث نتجه أو آتية من مدفعيتنا فتذهب الى حيث كنا، وكل خوفنا أن تسقط علينا، لكننا نتناسى ونتغافل، فيقلق تناسينا صوت طائر نخمن، متفقين، صغره وجماله، خلف كثيب ما، ومختلفين على اسمه:

-هو زرزور.

-بل هو عصفور.

-بل بلبل بري.

-كلكم مخطئون... إنه قبرة.

كنا نجهل اسمه، ولكننا نسمعه ونسمع القنابل ونتابع خطواتنا دون أن نحاول التأكد.

لم أكن أميل الى ان أنحرف باتجاه طائر أجهل مكانه، متوهما أن سنة من سنوات طفولتي بانتظاري عنده، وفضلت أن ألازم جماعتي على المجازفة بالسير في هذه النواحي وحيدا ولم يمض على وصولي الى الجبهة وقت طويل، فضلت أن أتبع العريف في طريقنا المألوف على أن أكون

فضوليا لماحا أو مرهف الحس مع هذه الطبيعة الوعرة التي قد تتحفني بصدفة من صدف الحرب غير السارة.

زئير القذيفة الخارق يهز مرايا هدوء تعكس تواضعنا البشري، ويذكرنا، إن نسينا، بأننا في حرب فنقطع أحاديثنا لنصغي الى تحذيره. غير أن وصوصة الطائر المغلق عنا وعن مرايانا المتقلبة مع الدرب تمدنا بأحلام مستقيمة مستترة تفضي الى حياة أخرى لا يرافقنا اليها عريفنا المتفهم لمتاعبنا وآلامنا. لا يتقدمنا في مسيرنا كثيرا ويغض الطرف عن فوضانا البسيطة الفتية على مسافة لا تقل ولا تزيد.

تلهينا الأرض بأوهامنا، بين قذيفة وقذيفة، لتنصرف الى يقينها الذي لا تطاله أعمارنا ولا يغيره مسيرنا عليها، ندرك هذا في لحظة فنكتئب....

-أليس سخيفا أن نظل متبعين طريق السيارات ونحن نسير على الأقدام؟

-حقا... باتجاهنا في خط مستقيم نصل جماعتنا خلال ربع ساعة ونكسب وقتا للراحة والاغتسال.

-فلنذهب من هنا!

هكذا اخترنا اختراق وعورتها من حيث أشار إصبع أحدنا.

حين إرتقينا أول تل صار العريف الى يميننا. نظر الينا بعينين على وشك الاستنكار، وانقبضت ملامح وجه شديد السمرة. قلنا له:

-عريفي.... من هنا أقصر!

رمشت عيناه وهو يأخذ نفسا عميقا من سيجارته اللف وألقى أول خطوة باتجاهنا. كنا ذلك اليوم أكثر تعبا مما سبقه فقد توجب علينا كحضيرة أشغال أن نقوي قنطرة تعبر مجرى سيل بأن نملأ عشرات الأكياس بالتراب والأحجار ونصفّها على جانبي المجرى ثم نضع فوقها طبقة من الأحجار الكبيرة تحسبا لهطول أمطار آذار الصاخبة الجارفة التي قد تضعف القنطرة ، ولم نجلس للراحة سوى نصف ساعة حول القصعة التي جلبتها لنا سيارة الأرزاق واجتمعنا لإلتهام ما فيها داخل أحد الأنبوبين الواسعين تحت القنطرة، تحوطا وأمانا من القنابل. كان عريفنا متعبا مثلنا ولذلك وافقنا ولكنه لم يكن مرتاحا لقرارنا، لأنه لم يستسغ تركنا الجادة وعدّه مخالفة صريحة ومجازفة قد يفقد الجندي بسببها حقوقه، إذ ربما تسقط قذيفة قريبة وتقتل أو تصيب واحدا أو أكثر من حضيرته فبماذا سيفسر وجودهم بعيدا داخل التلال؟ بدا له أن عذر الطريق المختصر غير قانوني، وبعد تفكير عميق قال بصوت عال:

-منذ الغد سأجعلهم يأمرون سيارة الأرزاق أن تأتي الينا عصرا لتعيدنا الى السرية!

هززنا رؤوسنا مؤيدين نية العريف.

رغم ما أشاعه فينا تغيير طريقنا المعتاد الممهد، والطويل الممل، من إثارة مريحة إلا أننا لزمنا حذرنا من القذائف. كنا نصعد ببطء واستمتاع ولكننا ما أن نصير على القمة حتى ننزل هرولة الى الجانب الآخر، ونتخلى عن طيب خاطر عن نعمة كوننا أقرب الى السماء وأكثر تعرضا لهوائها المنعش.

بعد صعود ونزول لمرات عديدة توقف العريف في منحدر وتفحص الأرض من حوله وفاجأنا بالقول:

-أرض مثل هذه عادة ما ينمو فيها الكمأ... قد نعثر في هذه النواحي على شيء منه.

لا أدري إن كنت الوحيد من بين رفاقي الذي لم يفهم لماذا قد ينمو الكمأ في هذه الأرض فقد بدت لي أرضا كغيرها ولكني بادرت الى تأييده قائلا:

-أجل... هذا فصل الربيع.

فقد سرني أن أراه مهتما بغير الأوامر العسكرية وأن يوجهنا الى شيء آخر غير ملء الأكياس بالتراب، وأن نبحث في الأرض عن بعض مما يخبئه الربيع. تباعدنا دون أن نغير إتجاهنا متفحصين الأرض، وكنت بين الحين والاخر أنظر الى العريف الذي جعل الإنحناء الى المنحدرات المعشبة جسمه يبدو أكثر امتلاء. كنت تواقا، وأنا على ثقة من فراسته الريفية، الى أن أكون أول من يعرف أنه اكتشف بقعة يعمرها الكمأ وأن أرى كيف يمكن أن يكون العثور على الكمأ واستخراجه. سمعته يقول:

-يوجد هنا حصى كثير... الى الأمام ربما.

ومرة اخرى لم أفهم لماذا لا يمكن أن ينمو الكمأ في أرض كثيرة الحصى ولكني لم أرغب في أن أسأله إيضاحا فأفضح جهلي المديني.

لم ينس أن ينبهنا أيضا:

-إذا سمعتم صفير القذيفة وانقطع بغتة فخذوا وضع الإنبطاح رأسا لأن القذيفة في هذه الحالة ستسقط علينا أو قريبا منا.

ولم تذهب ملاحظته عبثا فبين نظرة الى طير بارق وانتباه الى سفح سهل كان لنا إصغاء وعر الى ما يمكن أن تحمله السماء الينا من أفقها غير المسرات.

التلة التي كانت تفصلنا عن آخر انحدار نحو مقرنا التمعت عن بُعد بخضرة مثلثة. قلت لنفسي بعدها منبسط تكثر فيه أشكال أرضية متحجرة كأنها بقايا حرب خرافية أو تركة حضارة غامضة. لقد تمشيت ذات جمعة بين المستطيلات الضخمة والمربعات المشوهة التي يقف بعضها على عرق يرفعها عن الارض قدما أو قدمين كالسحر. تأملت جزيئاتها... عراء يوحي اليك بوميض ما حين تحرك رأسك يمينا ويسارا وأنت تنظر اليه، ذرات زجاجية، وجذور ترابية مبتورة وواضحة المقطع وسط الالتئام الذي لا يقاوم سطحه يدك حين تمرر راحتك عليه فيسقط نثار من حبيبات ملحية رمادية اللون. لكني لم أحاول دفع إحدى تلك الكتل القائمة على عروق لأسقطها. تملكني احترام هو مزيج من مخاوفي الروحية وإشفاقي على مخلفات كائنات جنية أو إنسية ربما إستقرت هنا في زمن محقته حرب أو أنهاه سأم سرمدي. أحيانا أكاد أجزم بأن خطوطا فيها ذات معنى مفقود.... نحت أو ركن هيكل ناقص، عمل لم يتسن إكماله أو إستغاثة تحجرت مع الرمال التي إبتلعتها. تذكرت أن تلك البقعة كأنها كان موضع حريق هائل... حريق شاسع لم يكن لعشب أن يطلع بعده أو تبقى بذور حية، وظلت الأرض بين التواريخ بلا فصول خارجة بشكلها الأرمد

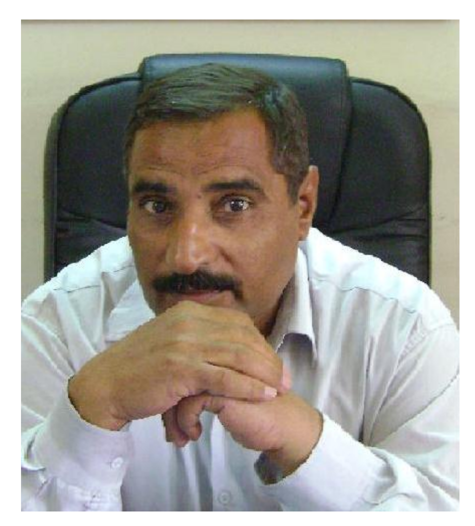
من قلق التحولات، واستقرت على مثال ميت أبدي واحد. قلت لنفسي سنمر بها بعد قليل.

بين مواضع سرية الصولة والتلال التي تنتشر فيها سلسلة نقاط الأفواج ومقراتها فسحة لا تلبي حاجات الحياء ولا تجتذب من عابرهم إلا نظرة لا تكرار لها، ولكن قبلها هذه التلة الترابية قد تكون حبلى بالكمأ. أسرعنا بفلتة مرح طفولي لرؤية الأرض الخضراء، وقبل أن ترتفع أقدامنا هب صفير صاعق وانقطع فانبطحنا انبطاحا قاسيا متشبثين بالأرض. حالت بيننا وبين زرقة السماء هبة دخان ترابي طالع من العدم. إرتجت الأرض بعشبها ومخابئها الودودة وكمأها وفطرها وأسرارها. حشرجت لنفسي "لا يمكن.... أبعد أن وصلنا تقريبا؟".

رفعنا أبصارنا بعد قليل الى غيمة بيضاء تتصاعد نحو غيوم بيض وطيور تحركت بعد توقف ذاهل. أحسست بألم في عظامي كلها وأنا أرفع نفسي ببطء. لم نفقد أحدا ولم نصب بغير كدمات احتضان الأرض. جلس كل منا في مكانه وتحسس جسمه ثم تلفتنا لننظر الى مكان سقوط القنبلة على قمة التل. نظرت الى العريف فرأيته يخرج كيس التبغ وهو يدير فيما حوله نظرا متمعنا. اكمل لف سيجارته وأشعلها وأخذ منها نفسا عميقا ثم إنفجر ضاحكا. فقدنا الرغبة في أكل

الكمأ وتابعنا سيرنا مسرورين لأن رئاتنا دخلها الهواء النقي من جديد. بعد مسيرة دقائق نزلنا نحو الأرض المنبسطة التي تفصلنا عن السرية، إجتزنا الأرض التي نجت من قلق التحولات، بعدها حدثني هاجس بأنه لن تسقط قذيفة أبدا.

المؤلف



جودت جالي من مواليد ١٩٥١ في بغداد بقرية الرستمية

مارس الرسم في بداياته ورُشح وهو في الثامنة عشرة للعمل في مجلة (مجلتي) رساما ولكن البيروقراطية الإدارية حرمته من التعيين. شارك في نشاطات الفرقة المسرحية لمركز شباب الزعفرانية وفازت الفرقة بالجائزة الثانية في المهرجان القطري لمراكز الشباب عن مسرحية كتبها خصيصا للإشتراك في المهرجان. كتب الشعر مبكرا وحصل على الجائزة التقديرية عن قصيدة له في مسابقة لإذاعة صوت الجماهير. حصل على عدة جوائز في الشعر في المهرجانات الثقافية لثانويات الكرادة الشرقية. نشر في السبعينيات أول نتاجاته في جريدة الثورة (شعر) كما نشر في

الراصد (شعر) وطريق الشعب (شعر ومقالات في صفحة أصوات شابة وقصة للأطفال بعنوان الكراكي) وفي جريدة الفكر الجديد (مقال عن الرواية الإنكليزية الكلاسيكية توم جونز للكاتب فيلدنغ بوصفها رواية تأريخية) وفي الثقافة الجديدة (ترجمة لقصة سوفيتية عن اللغة الإنكليزية من مجلة الأدب السوفييتي عنوانها الوادي الملعون).

كان مقلا في الكتابة وميالا الى الإطلاع وتنمية قدراته اللغوية فرغب بعد إتقان اللغة الإنكليزية بتعلم اللغة الألمانية بمجهوده الشخصي وترجم عنها لجريدة الثورة وفيما بعد لجريدة القادسية عددا من القصص، ولكن اللغة الفرنسية إستحوذت على إهتمامه أكثر فأهمل الألمانية وشرع بتعلم اللغة الفرنسية بنفس الطريقة، وداوم على تقوية معرفته باللغتين الإنكليزية والفرنسية، قراءة، خلال خدمة الإحتياط العسكرية في الجبهة، ومنذئذ ترجم عنهما لصحف الثورة والقادسية والتآخي ومجلة الثقافة الأجنبية. الى جانب ذلك بدأ يكتب القصص وينشرها في الصحف العراقية، وفي التسعينيات أخذ يقلل من نشاطه الثقافي حتى إنعدم أو كاد.

عاد الى نشاطه بعد ٢٠٠٣، ترجمةً وتأليفا، في الصحف والمجلات موليا إهتماما خاصا الى الثقافة الشعبية والتراث وكتب وترجم عددا من

المقالات لمجلة التراث الشعبي وصفحات الذاكرة والتراث في عدد من الصحف العراقية وأعد لسنوات متابعات ثقافية لمجلة الثقافة الجديدة. صدر له عن دار الشؤون الثقافية كتابان ترجمةً وتحريراً عن الفرنسية.. (نصوص عن بول ريكور) ٢٠١٢ و(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) ٢٠١٦. وصدر له من مؤلفاته عن دار ضفاف مجموعة قصص (فك الحزن) ٢٠١٧ و(جهات السينما الأربع) ٢٠١٧ تضمن مقالات في السينما، و(الهجاء في الشعر العراقي ومقالات أخرى في الثقافة والأدب) ٢٠١٧، وهو يعكف على إعداد كتب أخرى للطبع. نُشرت له مقالات كتبها باللغة الفرنسية عن كتاب عراقيين وقصيدة رثاء للفنان مؤيد نعمة في مجلة (بغداد) التي تصدر بالفرنسية عن دار المأمون، كما نُشرت له قصة (الضباع) كتبها باللغة الإنكليزية في مجلة كلكامش التي تصدر عن الدار نفسها. حاز على الجائزة التقديرية في مسابقة سافرة جميل حافظ الأولى لسنة ٢٠١٧ للقصة القصيرة عن قصته (ممشى الكالبتوس)، وشهادة تقديرية من إتحاد الأدباء والكتاب في العراق.

هذه القصص

مجموعة القصص، أو إن شئتم، مجموعة الحكايات التي يضمها هذا الكتاب تنتظمها رغبة المؤلف في تقديم نماذج قصصية بالأسلوب الواقعي، أقرب الى الواقع وتواجه بشكل مباشر ما نعيشه وعشناه في الماضي قريبه وبعيده، نصوص خالية من هموم الترميز والإحالات المقصودة أو ما يسمونه وراء السرد، ودون التقليل من أهمية أية مدرسة أدبية أو أسلوب، لا أرى لدي الآن مسوغا، فنيا أو غيره، للكتابة بغير الواقعية.

إن بعض هذه النصوص متقارب في طبيعة الموضوع الى درجة التلاقي في نقاط معينة. أما قصتا (إعتزال) و(قنابل وكمأ) فهما تشتركان بكونهما من القصص القليلة التي نجت من حياتي المضطربة التي سبقت ٢٠٠٣ وبقيت لدي بإعجوبة نسخ منها. قد لا تكون هاتان القصتان أفضل القصص التي كتبتها آنذاك من ناحية الحبكة والفكرة ولكنهما نموذجيتان للأسلوب الذي جربته في فترة كل منهما، وقد نشرتهما هنا لا لسبب سوى حفظهما من الضياع. القصص التي مضت على كتابتها سنوات أخضعتها للمراجعة والتنقيح دون المساس بالثيمة قدر الإمكان.

* (ما رواه العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) لم تنشر سابقا.(القبر الجماعي) نشرت في موقع الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق تحت عنوان (الرميم) سنة ٢٠٠٧.(ممشى الكالبتوس) في القائمة القصيرة لمسابقة سافرة جميل حافظ في القصة ٢٠١٧.(حدث ذات صباح في بغداد) نشرت في مجلة الأقلام عدد حزيران ٢٠١٧.(ثلاثة على لوح يحمله السيل) لم تنشر سابقا.(يوم ككل الأيام) لم تنشر سابقا.(إعتزال) نشرت في جريدة الثورة اليمنية في ١ أبريل ١٩٩٤.(قنابل وكمأ) نشرت في جريدة القادسية بعنوان (التقاطعات) في ١/ ٥/ ١٩٨٨.